

عربة البوعزيزي...



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والهوية القومية العربية، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة في ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يقيناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

علي عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكهت كحات - القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

خليل إبراهيم حسونة

عربة البوعزيزي...

رواية



الكتاب: عربية البوعزيزي...
رواية
المؤلف: خليل إبراهيم حسونة
الناشر: مركز الحضارة العربية
الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٢

الجميع والصف الإلكتروني: وحدة الحاسوب بالمركز
تصميم وجرافيك: محمد النور
011 11 83 503

رقم الإيداع: ٢٠١١ / ٢١٩٣٠
التوثيق الدولي: 987-977-469-102-1

حسونة، خليل إبراهيم.
عربة البوعزيزي... رواية / خليل إبراهيم حسونة.
ط١ - البجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام
والنشر والدراسات، ٢٠١١.
١٢٨ ص، ٢١ سم.
تسلك: ١ - ١٠٢ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - القصص العربية.
أ - العنوان

٨١٣

إهداء...

إلى الرجل الذي أطلق جسده
المحترق البيان رقم واحد ...
الشهيد محمد البوعزيري

خليل إبراهيم حسونة

...

.. المنزل الصغير يسبح في الضباب كجوهرة مهاجرة...،
رياح رطبة تعانق وجه الشوارع الترابية في هبات عالية...، نقاط بشرية
تلف آلامها، وأحلامها عبر لفافات التبغ الرديء ممزوجة بسعال حاد
يرتفع، ويخبو.

تدنس الريح الماطرة مضمخة بوجع الفقراء، معلنة غياب حاضريهم
ومستقبلهم...

أصوات الباعة الجائلين تصفع صمت المكان..،

يصم أذنيه، وهو ينتقل بين جوع ودار...

في قرية غير أفلاطونية يشاهد في حلمه رغم الفقر وردة، ومأوى،
فيه لك أن تغادر مكانك الذي لا يمكنه أن يغادر.. فيلقه النعاس،
يدغدغه، وهو يلم هواجسه في أتونه..،

.. وطن تحبه وإن غاب عن ناظريك أحيانا أو أطلق إليك قسوته.. كل
شيء فيه مختلف.. الناس والأشياء حتى السكر الشحيح فيه ممزوج
بالألم...

...

.. طيف حالم يُجلله الوقار، يلتف بعباءة بيضاء...،

يطلق وجهه فيضان من النور، يناجيه.. يشكو إليه وجع الذات،
والزمن الصعب.

يبوء بأهزوجة مدججة بالوحام...، فهو يعرف أن للمال سطوته
وهيبته، خاصة إذا كان يشغل بعض الناس، فهو حلال المشاكل،
لكن المهم أن يكون شريف المصدر، ويعني ذلك أن هناك العديد
من الأسر والكثير من البشر يعتاشون على الفتات في وطن تضربه
التناقضات والمصالح، ويعرف ما يضمره المتنفذون له، لكنه ينكر

ذلك أو لعله ينكر، ويصمت، بل ويتفاضى أكثر..!

.. ..

يترك فتائل النور التي تتركه..،

يتدحرج على الخدين دمع يابس كالخيز الجاف أو كالحصى،
حين يطبع خدوشه على الرمال..، تجره قدماء خارج حلم ألم به.. ينام
على كف البيوت، يرى بعض ملامح الوصال ترشفه..، يحترق معها
بعد أن يرى آثاره على قسماط وجهها. ولأنه لم يعد يحتمل ذلك الجمر
الذي يكوي روحه، وكل أعضائه.. يلصق ابتسامته تحمل كل أوجاع
الدنيا، ويثرثر مشفقاً على تلك الأم الصابرة التي تطلق ابتساماتها
النقية رغم شقائها الفظ...

.. هاهي تضعه في حدقيتها.. تفرك رشفات شفيتها، فتفرك لسانها
الكلمات:

_ أود أن أفرح بك يا بُني فما أنت قد بلغت السن المناسبة لذلك.
كما أنك رجل ولا كل الرجال.

_ الزواج يا أمي يحتاج إلى تكاليف باهظة ومصاريف ليست قليلة،
ليس بإمكاننا توفيرها، فكيف تريدني مني أن أتزوج، ونحن بالكاد
نملك قوت يومنا..!

_ الرزق على الله يا بني أعطني الإشارة فقط حتى أجتهد وأجد لك
الفتاة المناسبة، وفي القريب العاجل. أنا كبرت وأريد من يقف إلى
جانبي ويشعرنني بأنه من الممكن أن انتصر على سنوات عمري.
_ لكن يا أمي الدنيا الآن غير الدنيا كل شيء تغير ورغم هذا لا
مانع لدي إذا تيسرت الأمور. وليس سوى «توميه» من أريد.

.. ..

.. تطرق هذه الكلمات الصارخة ذهن الأم بقوة..

فابتعد حلمها كثيراً، وتهرب معه عيناها إلى الفضاء البعيد. يتمدد
وجهه على وجه الزمن البارد.. امرأة تحمل وجع أبنائها بين جوانحها.
تداوي خوفها بالبسملة والآهات. تبحث عن دموعها في دموعها..،

وجهها الطيب بقسماته المخددة رغم آلامها التي عكست شقاء الأيام والسنين ، ظل يمنح روحه مسحة فرح وبعض الصبر على يجد العمل المناسب أو حتى غير المناسب.

.. يحاصره التفكير وضغط الحياة فكل الظروف ضده ،

لم يجد من يسعفه.. تزداد قسوة الأيام.. تكبر.. تتعاضم.. أمعاء الأهل خاوية ، مستقبل شقيقاته على وشك الضياع والفرح في منزل الأهل في سبات عميق بل هو غائب حتى النهاية

فماذا يفعل وإلى أين يتجه هذه المرة..؟!

لا بد أن يحاول من جديد. لعل وعسى؟

.. ..

.. يحلق في الهواء على بساط الريح..

يعانق الغيمات وهو يطلق من شباك الحلم بصره صوب الشوارع الكئيبة.. يرشف أملاً ضاع ، وقد لا يأتي فمتى مدة طويلة والمؤسسة تحتضن أوراقه الثبوتية دون أن يتلقى رداً.. لقد طال انتظاره بلا فائدة تذكر.

.. يقدح ذهنه بعض أمل.

فلربما يسعفه الحظ هذه المرة. فلا يعود كما السابق بقرني بغل تفق..

يعضه عذاب الانتظار.. تهاجسه نفسه ، هو لا يثق بهم ، فلقد تأخروا بالرد عليه كثيراً حتى صار يتمنى أن لا تكون انتهت رحلة أوراقه إلى سلة القمامة..!

.. ..

.. تتاوشه الأفكار يمناً ويسرى..

يحاصره الإحباط والعذاب وقلة الحيلة..،

فمن الذي سيوفر الطعام وتكاليف الحياة للأُم معروقة اليدين التي لوحث الشمس بشرتها جاعلة منها كرعيف الخبز الساخن الذي يشتهي.

يفكر في مصيره الغائم، كيف يكون؟

.. لقد ضاقت الدنيا على سعتها في وجهه..

وصار صمته الدائم سيد الموقف في حله وترحاله. يطلق شظايا نظراته إلى أركان البيت المتهالك.. تراوح عيناه بين عيون إخوانه، ونظرات أمه الكليلة وهي تتحدث مع بناتها اللواتي يتقن لتكملة دراستهن من أجل لفت أنظار أزواج المستقبل وتحقيق طموح الأم في البحث لابنها عن زوجة تريحها وتسعده.

.. ..

.. لماذا لا يذهب للمراجعة..

ربما يحالفه الحظ هذه المرة..

يتأفف.. يتراجع.. لقد بات أكثر تردداً. كثيرة هي المرات التي ذهب فيها إلى المؤسسة دون أن يتسنى له مقابلة المدير المكلف بالرد على طلبات الخريجين الباحثين عن فرص عمل، خاصة وأنه تحصل على شهاداته منذ خمس سنوات.

.. ..

.. يتذكر والدته والفقير المدقع الذي يلف أسرته الصغيرة دون أن تتأزل عن كبرياتها ولو للحظة واحدة فالكرامة عندها كالماء والهواء.

.. تسحبه قدماء..

يتجه إلى المكان المحدد..

يقف في طابور الانتظار..

رجل أشيب يلصق على قسماته قناع الطيبة، والبساطة، يحديق في كل الاتجاهات ويتفرس الوجوه، وكأنه يبحث عن صيد ما:

- أنت ماذا بك، فمنذ مدة وأنا أراك في هذا المكان؟

- أنا هنا كي أرجع أوراقى.

- لي حديث معك نصفه سؤال والنصف الآخر نصيحة

- تفضل، أسأل كما تريد، وإذا أردت النصيحة، فأنا الذي أقدر

الأمر. لقد قدمت أوراقي أكثر من عشرين مرة ، فمنذ خمس سنوات وأنا على هذه الحال لم ألق أي جواب

- نصيحتي أن تختصر الطريق ، وتعمل معهم كن عيناً لهم ، هناك العديدون الذين يفعلون ذلك ، هم يوفرون الوقت ، ويحلون مشاكلهم.

- اسمع يا هذا.. أمور كهذه لا تروق لي أبداً ، لن أهدر كرامتي ، أنا عين لنفسي وعلى نفسي فقط

- إذن ادفع بالتي هي أحسن أو انتظر..!

..

يزم شفتيه ، يجلده بعينيه ، ينظر إليه شذراً..

ثم ينسحب عائداً بهدوء..

..النجوم تحاكي النجوم..

والطبيعة تصلي إلى الله.. تتقدم ثورة غضب مفاجئ.. ينسحب جازاً خيبته ويأسه ، يجتاحه الألم ، وتخترق موجات القرف كل خلاياه. يؤذ نفسه بقوة ، ويتساءل هل يسعفه الحظ وراء البحر فيما لو ذهب إلى هناك..

يطرد هذه الأفكار التي اجتاحتها فجأة والتي كثيراً ما تراوده في حالات كهذه. لكنه يعرف النتيجة مسبقاً أحلام محطمة ، ترقد في أعماق الروح كما الشمس الفارقة في بحر "سيدي بوزيد".

..

..تجتاحه موجات صارخة من الألم..

أحابيل اليأس ترسم خيوطها في عينيه.. بدموعه يغسل آثار الألم والجوع.. يدون آثار القرف عندما يذوي بعض حلم ويغيب متراجفاً إلى الخلف. ويهرول على فرس غاب في الزمن ليسكت حديث الجنون يذهب ويجئ ثم يدور في مكانه ..

يدخن همومه وأوجاعه محاولاً الخروج من حياته الصامتة..

حياة تافهة لا تحمل أي أمل في مستقبل بسيط حتى لو لم يف بالغرض تماماً. المهم أن يحتفظ بالحد الأدنى من الكرامة. دون أن

يمد يده إلى أحد.. تتكلمش ذاته على ذاته.. تذهب الأنواء به إلى كل الاتجاهات. يفكر مرة أخرى ماذا وكيف يفعل؟
.. يتمنى أن يصمد أمام غضب أنصاف الآلهة وسطوتها. لأنه يؤمن بالمباغته في التناز إلى ما يريد وكأنه في حالة حرب لذلك لم يحاول الهروب إلى الوراء..

..

..إنهم يحاولون احتقاره كلما حاول الاقتراب منها..
لكن حدسة الناقد لا يخيب، فهو يعرف جيداً أن الظلم الذي هو رأس الفساد لا يكتب له البقاء، كما دوام الحال من المحال. والناس بطبائعهم يميلون إلى الفرغ الممزوج بالتمرد والكثير منهم لا يعجبهم ما يحدث خاصة هؤلاء الذين يملكون قدرًا من الكبرياء.. لأن نفوس البشر جميعًا تواقه للانطلاق، كما حالها مع التمرد.
فمن الذي يمكن له تخلص الأمهات من أحزانهن..
ويضك أسر أزواجهن، وأبنائهن، هؤلاء الماجدات الهلاليات اللواتي يكسبن على جراحهن وهن يشربن المقت والجوع ويقمن ودهن بدفع الثمن..

فما الذي يحدث وإلى أين تذهب الأمور؟

..

..موجة اكتئاب لافت تتحرف عن الطريق..
ينهض تجاه الفجر يرفع هواء في وجه ينكمش بين الفينة والفينة، كجلد حمار خشن، أخرجوه من الماء، فانسحب هاربًا، هنا من يوصل الأخبار والأحوال للآخرين، هناك من يصمت، وهناك أيضًا من لا يمثل، لذا صارت الأيام في نظره مسرحًا للمتعة الخاصة، المتعة الخاطفة والحزن النبيل.. يتذكرها، يحاول أن يفعل شيئًا..
..الهموم الممزوجة بهجة غريبة وصافية، تقوم على حضور الأنا ونشيدتها عبر الذات والبحث عنها، الذات بوصفها مركزًا للسكوت الذي اشتعلت فيه روحه وغاصت في الغياب.

...

طيف يتقدم بأرديته البيضاء..

يتقدم منه.. يتسهم في وجهه.. معه جملة من شباب سيدي أبو زيد ،
سقطوا من أجل كرامة الوطن.. يشير إليهم بإصبعه فرحاً بيتسمون..
يتسحب الطيف..

.. يحضر صاحبه الذي يشاركه همومه فأوجاعهما واحدة..

والبحث عن العمل والفشل فيه القاسم المشترك بينهما..

ينقب في ذاكرته ويفكر في أن يعمل شيئاً ما بهدف الخروج من
مطحنة الحياة ، ففي النفس ما يعكرها .

والسكوت عن الخطأ والفساد يجعل الجميع شركاء في هذا
الخطأ وذلك الفساد ، فشتان بين من يملك ومن لا يملك لكن لكل
شيء أسبابه ، ولا بد من تغير الحال إن أجلاً أم عاجلاً ، فعلى هذا
التراب ما يستحق الحياة .

...

.. الأرض تجلد رذاذ المطر بتراهايا بين الأزقة والشوارع..

ومدينة سيدي بوزيد غارقة في صمتها ، وغيابها..

البشر فيها ليسوا كالبشر ، مقاهي متهالكة ، بيوت آيلة للسقوط ،
شوارع تشكو عذاباتها ، وأطفال حفاة ، فتيات رائلات ، يفتشن في
أكوام القمامة عما يسد الرمق.

- هم يأكلون ويفرحون ونحن نشاهد ونتألم ، وكأننا لسنا من هذا
الوطن

- أسكت وإلا قطعوا لسانك ، ولربما رأسك.

- لم أعد أهتم لقد طفح الكيل فأمثالي وأمثالك أموات أحياء وأحياء
أموات ، والموت أفضل ألف مرة من حياة كتلك التي نحياها..!

...

..يطارده الماضي المؤلم..

وهو ينظر إلى مستقبل يلفه الغموض..

حاضر نهايته قلقة تحمل بصماته التي تعرف كيف تكون النهاية..
بيكي الورد.. والحلم يتنفس رذاذ المقت.. الطاغوت يدنق قرفه على
الأرض الطاهرة ، ويضغط بكلكله على الناس إنه في زهرة العمر ،
ولا صديق لهمومه. فهل تبعثره الأيام بين أوراقها. وأروقتها.؟
.. لقد اختلط على عقله ما يرى ويشاهده وهذا ما أثاره..

صديقه الفقير العاقل عن العمل والذي حاله من حاله.. فقره يستبد
به يؤلمه دون أن يسحب منه كبريائه وكرامته ، فيحاول أن يشاركه
وجدانه بأن يزيح عن كاهله ثقل هذا الوجد.

- لماذا لا ندخل بعض الجمعيات أو الأحزاب ، عليها تجلب لنا حقوقنا
في المستقبل؟

- الحزب الحاكم هو الأفضل لأن بإمكانه وحده توفير كل
الاحتياجات والتسهيلات لأن بيده كل شيء.

- أنا لا أؤمن بذلك فالعديد من هذه الجهات ، إنما هي مزارع لصيد
النسوة ووصف الأفكار والامتيازات للمتنفذين.

.. ..

..تشابه الألوان بينه وبين طقوسه الخاصة..

هنا فقر مدقع ، وهناك مخدرات ونساء.. وأشياء أخرى تؤكد أن
المتنفذ رجل فاسد ، ولص مقنع بالشارات والابتسامات ، يكسر
مراياه.

..يدندن بأغنية حزينة تاجها في الغيم ، وأهالي سيدي بوزيد يحملون
آلامهم وأحلامهم.. يفكر في شيء فجائي يجتاحه بغتة ، ربما هو الموت
هذا الشيء الغامض الذي يخفي شيئاً لا يعرفه ولن يعرفه أحد..

- لا تسألني عما بي... ، ما بقلبي يظهر على وجهي وفي عيوني فأنا لا
أستطيع أن أؤخر قناعاتي الخاصة ، فالإنسان يتعود على ما يريد كما
يريد وبسرعة فائقة

- نفسي لا تستطيع أن تبارح مشاهد سيدي بوزيد ، وما يجري فيها ،
لقد أصبحت كما غيرها مسرّحاً للقهر. وسيأتي الوقت الذي يفعل به

ما يفعله بالآخرين..

.. ..

" يحضره الطيف "

يعصر ذاكرته بقوة..

يخلق بجناحيه المقصوصين في سماء بيته المتهالك، يرى كيف
ظلت تمسح دموعها ، فيحاول أن ينظر في عينيها ، ويتألم لأنه لم يستطيع
أن يفعل شيئاً ، أن يحقق لها ما تريد تفاديه ذاته إلى ذاته. بعد أن تزداد
قناعته بأن من له أم مثل هذه الأم لن يخاف ولن يخشى عليه أبداً ..

.. ..

.. هي وردة طالعة..

عيونها الفاطمية تختصر تاريخ الأرض..

مواعيدها خبز وماء.. شجر ، فراشات ملونة ، وفرح طлаг أبداً..
ظل ينتظر مجيئها في لحظات الشتاء الياردة. ليقطف من شفثيها
دفئاً وبهجة.. أول ابتسامه أطلقتها أشعلته وحملته على بساط الريح نحو
ضياء القمر ، ، إنها "توميّه اليوسعيدية.. ريانة العود التي ظلت تسعفه
في لحظات الألم.

.. كل الناس يغيرون أفكارهم كما يفعل الجميع إلا هو..

لهذا يحاول من جديد. فهل يرفض الحياة الواقعية من أجل أفكار لا
تتحقق إلا على الورق دون الحياة ، أو في الخيال فقط. لقد صار المدى
أشد إيقاظاً من نهيق الحمير.. فهو مصاب بالقرحة لا بسبب ما يأكل
منه طعام. بل بسبب ما يأكله من وجع وفاقه..

.. لكن أليس من حقه الحياة قطف الكرامة وأن يفتح قلبه لما

يناسبه!؟

.. ..

.. قلبه مهمور بالذكر ريان بالاستقامة..

عبر بقله الطريق المتعرج الذي بات مقتنعاً بأنه لن يوصله إلى
المستقبل الجميل ، بعد أن إخرقه اليأس حتى القاع ، فتشربّه حتى

الثمالة ، بات واثقاً بأن الإنسان في هذه الدنيا من الممكن له أن يدمر نفسه بل وكل شيء إن هو عاش في ظلمة الاكتئاب في عصر فاسد مجنون تتعالى فيه الضحكات كلما زادت مآسي من هم مثله ، ووقعت المصائب على رؤوس الناس ، كقطرات ماء بارد .

ورغم هذا علمته الحياة ، بأن الكرامة فوق كل اعتبار ، وأن كل شيء سيتغير ، فهل يحدث ذلك؟

..كل شيء قابل للاختلاف فعلاً إنه الزمن وحركة التاريخ.. الطفولة.. الحياة.. ملامح الجدران.. العلاقة الجدلية بين الإنسان والمكان ، وهذا جزء من التطور الطبيعي للحياة ، وهو ما كانت تردده أمه دائماً..

...

..تمضي الأيام في سيدي بوزيد في طريقها إلى أيامها هادئة ، هادئة.. الجميع رغم فقرهم سعداء ، وإن كانوا قانعون بما قدره الله لهم. لكن أجوافهم تغلي وتشتعل هذا ما يبدو على وجوههم.. وهكذا هي حياة البسطاء.. رحل الرجل الكبير بكل متاعه ولم يترك لهم شيئاً سوى الفقر والبساطة التي طالت كسنوات عمره وغربته عن بلده التي يعيش فيها. هذا ما كان يبدو وهذا ما صرحت به الأم أخيراً..

..اعتكفت لمدة طويلة..

في محاولة منه لتشريح جثة الزمان.

فمدينة سيدي بوزيد ، تحتاج إلى لحظة فرح فضاءً عذباً وجرعة كرامة لقد ظل يفكر في هموم الناس وأوجاعهم التي تهم الجميع ، لأنها ترتبط بحياتهم ومستقبلهم على اختلاف مشاريهم ورؤاهم. لم يحضر الصديق وكان مكروهاً قد أصابه ، أو ذهب وراء الغيب خلف الجدران ،

...

..يلف همومه في لفاة يتيمة.. يتأفف..أنظر إليه ، وأنا ألتخ مرآتي بطين حقيقي....

صبح باهت يقف على يدي فأعود بحزن الماء أرشف مداد البحر أتفرس جناح النجمات ، أحلم وأشكل من صلصال حزني دمية عندما

يوغل بي ماضٍ عتيق.. يحضرني عالم مضيء، كينونته تسبح في أفق
باهت معتم وغير مضيء.. يرى نهارًا فوضوياً يرسله ليرعى طفولته
الندية، فيفتح العديد من التساؤلات الموجعة، ويفتح أبواب مسرح
عتيق يشعل الحكايا، والثرثرة:

- هل كنت وحدك دائمًا يا أمي. وهل لي أكثر من أب، لماذا يلازمنا
سوء الحظ؟

- أي شيء يخلص الناس، والوطن يمضي أيضًا وينفس الدرجة،
سيعطلون بشكوكهم كل أعمالنا، ويصادرون كل شيء لنا، فهل
هذا هو الحلم الوردي الذي عملوا على تحقيقه؟!
- حلمهم أن يعيشوا في هنا. يفكرون عنا. لنا القرحة ولهم كل ما
يشتهون ومن بعدهم الطوفان..

- لماذا ليس لنا حقوقهم..؟!

- لا تقل ذلك يا بني طهارة اليد أفضل من كل شيء

.. ..

..الناس أناس من الناس.. يعيش التمرد في نفوسهم. لكنهم عندما
يرتقون يجتاحهم الجموح والاستبداد، كما أن فسادهم يزداد كلما
ارتفع هواهم أكثر.. إنها ثقافة أصحاب المراکز والكراسي التي
تجتاح كامل البلاد وتعيث فيها فسادًا.

.. ..

يحضره الطيف. يشير إليه ويهاجسه كلما اشتد ألمه يتقدم منه.
- الإنجاز الكبير يجعل صاحبه يكبر معه، ولكن المصيبة الأكبر
هي السكوت فماذا أقول للكلمات التي تريد أن تخرج من فمي؟
- أن ترفض أن تكون ضمن خديعة تطالك، وتطلب منك أن تنصهر
في أتونها. لهذا أسمع صوتك لنفسك وادفع موجك دائمًا إلى الأمام.

.. ..

.. يسحب نفسًا عميقًا ممزوجًا بهم عميق طالما اختزنه في صدره،
وطالما أطلقه ليسعفه في لحظات كهذه.. لقد صار وجع الناس وجوعهم

يسقي تراب الأرض أغنيات الرفاه الزائفة التي يطلقها الزبانية .. بعض رؤى تتغذى من بقايا النبوءات.. يكتوي بالنار واللوعة.. جملة من الأخبار المتواليبة.. تحمل مرارة كبيرة، لأنها تتعارض مع القيم والتعاليم التي نشأ عليها هذا المجتمع الطيب، وما يطلق من إدعاءات بالرفاه فرية مكشوفة، إنهم يقتلون الناس يعذبونهم.. يصادرون كرامتهم بهدف إبقاء صمتهم حتى النهاية..

.. ..

.. تمضي الأيام..

تسير في طريقها لا تلوي على شيء، فكل حكاية بدون نهاية، وأمور كهذه لا بد أن تنتهي، ويجب على الإنسان أن يفعل ما يحب، وما يتوجب عليه عمله، ما جعله يؤمن بأن ما على الرجل الواعي، إلا أن يحمل رسائله بصدق إلى الناس فهو نبي في مجتمعه أو أن يكون مسئولاً عن وعيه على الأقل وحتى لا تكون هناك ثقافة فاسدة..

.. الناس يميلون في غالبهم إلى المحاكاة، منهم المتعبون وهناك المتنفذون الذين يشعرونك بالقوة، وأحياناً يجعلونك تتقيى ما تؤمن به وما لا تؤمن به أيضاً. ها هم يرددون قصصهم بأنفسهم، وما تبقى من ذاكرتهم.. حكايا متباينة مغزاها أن لا صدقة في الحياة، وأن لكل شيء سبباً..

.. اغترف من كف خزنه رشفة اغترف..

يقرر الاتصال بالأهل حتى لا يقلقوا أكثر من ذلك، تؤكد رفضها الطلاق.. هي محقة فيما تطلبه.. إنها تريد بعضاً من كرامتها.. لذا يجب الاعتذار لها أمام الجميع لكي يطيب خاطرها.. هي تعرف أنه يجبها، وأنها إن تركته لن يتركها هو:

- إذا كنت لا تحببته إتركيه إنه مريض بمرض العظمة المزمن.

- وهل هناك فرق بين المرأة وزوجها؟

- قضايا الناس تهم الجميع لأنها ترتبط بحياتهم ومستقبلهم على اختلاف رؤاهم.

- لكنا شييء واحد... روح ومستقبل واحد أيضاً

.. ..

.. ينظر إلى هذا الذي يحدث، يجره الشرطي من ياقة قميصه، يصادر أفكاره المختزنة، معتقداً أنها لن تخرج إلا تحت لسع السياط.
- أنا لم أفعل شيئاً..

- لكنك تنظر على الأعوان بشذر.

- لا أقصد شيئاً مجرد التفاتة حصلت مني بالصدفة..

- نحن من يحدد، إن كان صدفة أم لا.

.. ..

.. مطر غزير، كأنه طوفان نوح..

وكان أبواب السماء فتحت على مصاريعها..

ماذا سيفعل..؟! يبدو أنه لن يستطيع القيام بشيء البتة. فعندما يكره المرء يخونه ذكائه وقدرته، وينتابه سوء الإدارة، لأنه يكون في حالة فقدان للوعي، والعقل، والالتزام..

.. يغيب وراء الغيب.. يدخل في عالم الرؤى..

ويدق أبواب الأحزان..

.. ..

.. يتقدم منه الطيف من جديد..

يشحنه بالفأل الحسن، فالدنيا تجمع الناس، بأناس لم يروههم.. وأحياناً لا يطبقونهم. لهذا من الأفضل للشخص أن يكون واقعياً ومختلفاً، لا بالهروب من الماضي، ولكن بالتقدم إلى الأمام،
.. ينظر في وجهه.

قسماته الصامتة، هموم مكتومة، لا تريد الفكاك منه، ولا يود البوح بها، حتى لا يعكر صفو أحد، ولا يعكر صفوه أحد، خاصة وأنه طرحها في السابق على العديد من الأصدقاء، والمتنفذين دون أن يعيره أحد اهتماماً عدا صديقه الذي له نفس معاناته ووجعه..

.. ..

.. الطيف يقترب منه.. يتفرسه.

فينكمش على ذاته ، يجهد العرق والأرق فينطلق لسانه :

- لقد أحببت الحياة ، لكنني أردتها أن تكون سوية ومثلى. لهذا رفضت عرض أمي بالزواج ، لأنني أريد أن يكون ذلك بناءً على العقل أولاً وأخيراً.

- يبدو أن في جمعيتك الكثير هذا ما أراه ، لكن عرضه الآن غير مناسب ، فلا تفرق نفسك ، في الكثير من الأوهام والهموم ، لذا أرى أن تدخر ذلك لوقت آخر.

- لا أود أن أزعجك ، فأنا لا أشرك أحداً فيما أفكر ، وهذا كما يقولون أهم ما يميزني.

...

.. يسحب نفساً عميقاً طالما اختزنه في صدره..

وهي كما هي ولدت على بساط الشوق ، لذا لا غرابة إن ظلت تضرب بجذورها في عمق الأرض والتاريخ ، لتقبض على مفتاح حلمها بالعمل.. امرأة عندها من الصبر ألف من جدائله.. تستلقي فوق داليتها ، وتأتلق ، ثم تلقي بثمرها نحو المحتاجين والجياع.

...

.. يسكب حبر قلبه كي يظلم العرق..

غريته عن ذاته شددت القلوب ، ودفعت إلى الهلاك ، قيم تتهدم أمام المصالح ، إنها قصة الأمس واليوم ، وحكاية كل زمان ومكان.

- لا تتركني وحدي يا بني ، فلك في القلب مكانة خاصة ، أنت رجل البيت الآن ، يجب أن تعرف ماذا يعني ذلك!..

- أعرف أن والدي منذ مرض ، لا يرى أحداً إلا وأشبعه عضاً ، لقد أصيب بداء الكلب ، ولا ندري ما العمل!؟

- لقد عرفت أنهم عذوبه كثيراً ، ذلك هو سبب ما هو فيه.

- المشكلة في الأمر الكرامة.. لقد هُدرت كرامتنا.. رجل في مثل عمره ، يعامل بهذه القسوة ، لأنه سأل عن أحوال صديق له في السجن فاعتقلوه ، وعذوبه بدون سبب.

- كرامتنا، تقول كرامتنا، إنها مبعوسة منذ أن ولدنا، وحتى نموت، سنظل كذلك.

.. ..

.. بحار من الرفض للواقع المر، تلثم أمواجه الجموع الغاضبة..
يبتسم لها الطيف، فيصرخ حلمه في الجموع.. قد تبتعد عنا الدنيا،
وتفلق علينا مفاتيحها، فلا نجد بين أيدينا سوى الصبر مفتاح الفرج،
ورغم هذا ظل يسأل عنها الشمس، ويقطف في حلمه من على وجهها
النجمات الساطعة!

.. ..

.. يقترب من أحدهم.. يود أن يشرح لها حاله.. يفكر.. يتردد.. وأخيراً
يقرر. فلماذا لا يبوح معاناته، وينسق مع أصدقائه، ثم يبين ما يريد،
ولتكن هذه المرة الأخيرة، فلعل وعسى.
.. تدندن ذاته لذاته.

صوت يصرخ داخله، يدفعه للإسراع، فلربما يحصل على فرصة
العمل، خاصة وأنه حقن نفسه، بالكثير مما يعتقد أنها بعضاً من
ذنوبه التي تؤلمه، ومثلها ما يؤلم الآخرين من حوله..

- لكن من الواجب أن تستشير أصدقائك في كل شيء، هذا هو
الطريق الصحيح لكل الأمور، فأنا أشعر بالكثير من الألم الممزوج
بالوهم، لكن الكبرياء والمكابرة هي التي تثبتني أكثر.

- لقد فعلت، كما أننا توصلنا إلى قناعة، إنهم يحرثون الأرض بملح
الفساد، يدفنون التاريخ، ويدقون سواريهم في صدر الحلم والتراب،
- انتبه لما نقول. استوعب تكرار أغلاطك التي ليس لها نهاية حتى
تصل إلى مبتغاك.

- سكوتنا عن الخطأ والفساد، يجعلنا شركاء في هذا الخطأ
وذلك الفساد.

.. ..

.. وجع مستقر في الداخل. ما أن يصمت حتى يأتي من يذكي أواره
من جديد، يؤكد أن الوهم الذي قاده إلى الحلم مجهول. لربما هو

كذلك، ولربما هي الأحزان. بحيث أن البسطاء أمثاله، وجدوا أن ما ينتظرهم أدهى أو أَمْر..!

...

.. لياليه علية كالهواء الملوث..

يتذوق السباب، والشتائم التي تجذرت على كامل المسامات وكل الفصول. يضافح بعينيه عيوناً أخرى، تبدأ بالصدفة وتطلق الصلف، ينابيع تدور حول حفرها، وهي تبتاعه بعجالة أنملة..

ارتدى ناره عبر هاتف جوال، ابتاعه من سوق الخردة.

صار يطلق شمساً ينتقل إليها، وعبرها كفراشة سحرية، من أزيز لآخر، ثم يشعل شمعة من هواه، تزخر بالبرق، وتحترق بالماء كلما أراد أن يقرر شيئاً آمن به.

.. الأمطار تغسله وتكويه ليلاً..

تغسله وتكويه الأمطار.. وهم يتقدمون بين الدراهم والمراهم، والحقيقة، شعار بلورته ترفعهم إلى القمم، تصعد سهواً إلى أماكن عقولها، لم تؤثت بعد، وجداول مائبة بصفحاتها المهزوزة تحمل بصماتها الساخنة للإجهاز مؤقتاً على وجع ذهب ضحية صمت ظل تائهاً قبل أن ينطلق من عقاله.

...

خطوات محسوبة بصراحة..

ووضوح أبق يرفع عنقه عالياً..

الأيام ملتحية بالفتاوي التي تمجد السلطان، وتحمد عدالته الناقلة، والأبواب مغلقة، وهو أنا تسافر في أنها، بين ذاتها وذاته تقف ثقافة الصبر، والصبار، الجموع واقفة تصرخ، واللهمفة سيدة الموقف، وزعيم أعسر الذهن يحتضن بيمينه، ونصائح جوقته بعض الشكوك في كل أفراد شعبه. ومع ذلك يظل يحلم بمال قارون، وليالي شهريار، وكيف يفكر عنهم ويحدد لهم مصيرها.

- اذهب إلى وجعك مارس بوحك فأنت من يهيم الوطن، ومن يهيمه

الوطن الآن.

- العالم يحمل على كاهله مشروع تعميد العالم، فما بالك بوطنه، لذلك يستمر.

- التغيير واجب، وحب الوطن نعتد به.. ألم يحقق لنا بعض ملامح ذاتيتنا، وخصوصيتنا، إنه يُحب التغيير، لذا يجب ألا نخذله.
- كل مرحلة.. ولها رجالها، ونحن لها.

..

.. لا زال ينتظر أمام المؤسسة..

تأخذه الدقائق يمناً ويسرى..

.. الوقت من نحاس إنها مرحلة ما بعد فرز الأوراق، إعلان النتائج التي تحدثوا عنها كثيراً.

- لقد كان الامتحان صعباً للغاية، أما اللجنة فحدث ولا حرج. إنها لجنة معقدة، لجنة المحسوبة والوساطة، أو على الأقل المحاباة.

- ومتى حدث هذا، متى كان الامتحان..؟

- لقد حدث ذلك في الأسبوع الماضي وما زال يحدث. إنه في كل لحظة قاعدته المعروفة الاستلطاف. أو ادفع ما تيسر..

- هذا يعني أن لا فائدة.

- القوانين والنظام. كما العدالة، لا تخيف أحداً. الذي يخيف هم البشر، وتفسيرهم الخاطئ للقوانين بما يرغبونه وكيفما يريدون.

..

.. يستمع لثرثرة جانيبه..

يشيح بوجهه عنها. فمنذ أن جاءت على رأس مجموعتها، وهي تحاول جذب الناس إلى طروحاتها. مينة أنها الأفضل وإن عندها علاج لكل العوائق، البطالة. الفساد، القهر. وما إلى ذلك.. لا يلتفت إليها. كما أن أذناه وكأن بهما وقراً.. فالأيديولوجيا لا تشبع البطون الجائعة. لقد قرأ كيف كان العالم في السابق إما إلى اليمين أو اليسار، مع الشرق أو الغرب، أما الآن فهو مُعولم أو غير مُعولم، خاصة بعد أن سقط اليسار، وفشلت تجربته، لذلك لا يجوز أن تظل رهاناتنا عليه قائمة بعد هشله

الذريع.

- لا تأسف على ملك ليس لك منه شيء.. حتى وإن كانت القشور.
- الخوف هو الارتباط بالآخر الذي لم يرحمنا في السابق، وهو كذلك لن يرحمنا الآن.
- العمل، الصدق في بلورة فعل الذات، ودون اللجوء لأحد.

.. ..

أمور من هذا القبيل تناوشها رياح الأفكار وتدفعها.. جعلته يتعمق الأشياء بمعناها الحقيقي، لذلك يعطي الفضاء لونا لغناء جميل..
جميل.

.. " سيدي بوزيد، مدينة حالمة.

تقدم ماكياجها لماء النار.

مرآتها مستبدة، قريبة من منديل ورقي. يتمدد بشنطتها التوأم ورؤى مشفوعة بالابتسامات المسموعة. والمسموح بها بالانزلاق والتربص، للحزن فيها ضفائر وحكايا.. دواثرها دم وضحايا.. هكذا أخبره عقله الباطن، فتأكد أكثر أن ما كان يعرفه، ما زال يعرفه. لا زالت تدلع شطائر موته على صفائح القلوب المحبة.. وكلما تراكمت خطاياها على سفن من الخلود، أمام حشود الفضيلة، تترد المسامير إلى صدور أبنائها، فتتجمد أرصده حبه، وتسكت.

.. ..

.. يفكر فيما يشاهد..

فمنذ مدة وهو على ذلك الحال..

ينكفي على صدرها بارتياح، والثلج المنثور على زخات النار، يربت على جبينه بمنديل أزرق، ويصفر في غابة الأعياء ملء شذقيه.
.. تقف الحياة على يدي تصادر الابتسامات..

ولا تخدعها الدموع في الأحداق المحترقة بدموعها الساخنة. لا يمكن لك أن تستجيب لدعوة أكبر منها. ينظر إلى صديقه الذي يشاركه همومه.. يسأل عما حل بأوراقه.. فقسوة الحصول على الخبز تلاحقهما

معاً تهدر كرامتهما في زمن عديم اللون والطعم، وقديم الرائحة..
..لاشيء جديد..

فقدان الأمل، واليأس سيديا الموقف. فقط أغانيم ثلاثة نبرز دافعة
للغيم نحو ظلال الأرض، تنغرس في التربة، تصفع الحديد، والإسمنت،
ورجل يقصف شاربه الكث بكلماته المتتابعة، وجهه الملمع بالحمرة
والخجل، التقرز، يسحب كلامه من دمه..

تسحب ألوان مشفوعة بالبهتان من دوائرها.. ساحبة شظايا سنابلها
المعلقة تختزل ألف مرة زلازلاً مجللة بالبرق، ورضاب الأوزون الخارج
من رحم الغيم.. بيتسم.

...

تتقدم منه، يتقدم منها.

تصبح الفتنة وتلافوها جوازاً للشرعية، وعندما تمطر الأيام لياليها
العريزة، شهداً، وطواغيت دم. ينطلق.
- الوطن ليس قطعة أرض ومبان فقط، إنه حين ارتباط ما أو
أكثر.

- يبدو أن هذا الرجل مُخترق من خاصرته.. أتعرف لماذا؟ لأنه سياسي
يبحث في عينيها عن كل مديح بابتسامة متوجة بماء البحر ترتدي
خريفاً ساخناً، حتى لو لبست ثوب الفجيعة.

- اختر من واقعك ما يناسب حياتك. فكل شيء يبدأ من الواقع.

- قف واقترِب سأحضنك كي أشم فيك رائحة الأرض.

...

.. الحروف محظور وقوفها على شفاه الفقراء..

تجعلك لا تعرف بالضبط فيما إذا كنت منفياً من الداخل، أم هو
الترويع والخوف من الحياة؟!

مأساة البيت، هي مأساة المكان، وأمّ رغم أنها شاخت، لم تشخ
أحلامها. لقد أرضعت أبنائها حليب الصبر والجلد، حليب الأنفة. وظلت
تقف بين المطحنة والمطحنة، ملفعة بصلاية الفولاذ، ونعومة الحرير،

تحديق في عيني ابنها الطيب المسكين ، مؤمنة بأنه لا بد أن يشرب
الجلاد من نفس الكأس التي سقاها ظلماً لخصومة المُفترضين من
الناس البسطاء..

.. ..

لقد ظلت تحمل العديد من المصاعب ، فتحملها المصاعب إلى آفاق
بعيدة..

.. ..

..أنظر حولي..

أتدقق لظي وحمماً..وأنا أفكر في هذا الذي يجري ، ويحدث ،
وأتساءل عن تأخر قوانين الخلاص.. تقف الحياة على يدي ، تصادر
الابتسامات ، ولا تخدعها لحاظ الأحداق المخترقة بالدموع الساخنة .
هي لا يمكن أن تصمت ولا يمكن للسكوت النيل منها . إنها
تستجيب لكل الدعوات . حتى لو كانت أكبر من ذلك ، لقد كانت
المرّة الأولى ، التي أشعر فيها بأن هناك من لا أبدله بكل كنوز
الدنيا . إنها الأم التي يجب أن تتجاوز الجوع والعذاب الذي سببه هؤلاء
الذين تأكدوا من غفلتها التي لن تستمر طويلاً .

.. ..

اشراقه مجللة بالنوى تفتك به.. تدفعه للتطلع في وجهها المخدّد..
النخر

- أنا أمك ، والأم لا تكره لابنها الخير. أنا لك ، وأنت قطعة مني ، إذا
كثرت المخالفات انتبه جيداً ، حتى لا ينقلب الحب إلى كراهية. إنهم
أناس لا رحمة في قلوبهم.

- لقد حسبت نفسك ، داخل نفسك وهم لم يراعوا فيك ذرة إنسانية
واحدة ، وسلوك كهذا يقتلك ويؤلمهم أكثر من الغير.

.. ..

.. السماء غارقة في النشيد..

خصلة شعر مخضبة بالدم والحناء ، تتغنى أجراس "حنا بعل" وهي

تسطع في الظهيرة، والندى وطن يضج بصبح يطلق النعناع، ويرسم
وجهاً بلون الخضاب، كحالة من حضور ذوائب "قرطاج" عندما
تمشطها، عوليسه، وهي تحمل سارية الذي هرب من الشوق وتخييط
مدينتها على جلد ثور، تحاكي القمر الذي لم يتنازل عن عرشه عبر
لهيب الانتظار.

- اختر من واقفك ما يناسب حياتك. فكل شيء يبدأ من الواقع.
- في قلبي آخرون غيره، إنهم أولادي، وأنت تعرف كم تعذبت من
أجلهم.
- حياتي مشاكل وعذاب، ورغم ذلك فإن عذاب الحب، والانتماء
شيء جميل ورائع.

.. ..

.. يصمت... يختبئ في زوايا نفسه..

لقد أشعلوا أنفسهم بهمومهم المتراكمة، وكان حلمه واقف معهم.
رائحة الجوع، تزكم أذن المذيع، يحاول أن يوقف الطنين الذي
يصفعه، ويفلق رأسه إلى نصفين فيصفعه بدوره، وبلا مبالاة. وسيدي
بو زيد، مدينة تحلم بالخبز والحرية، وهو لا زال يحاول الوصول. لهذا
أصبح ومدينته شيئاً واحداً!

.. إشراقة دائمة، وضحكة نجمية لا يخطئها الزمن ورجل لا يمكنك
إلا أن تحبه..، شامخ عنيد في ثوابته، عينان سوداوان تخفيان شجناً
أكيداً..

.... يتوغل شوقاً بحب الناس....

يطرق الأبواب والمصاطب. يقف شامخاً.. يتنفس ريح الأرض،
المزارع، وحكايا الفلاحين البسطاء، يبحث عن لحظة عطر جميل..
وعلى عتبات تقويم سنوي جديد، تدخله جرعة.. جرعة ثم تداح في
خلاياه فرحة مسرورة..

.. ظل حلمي تألق قصير..

وكذلك صار حلمه، وتبلورت طموحاته..

غيوم الهموم تملأ كأسه، فيتمنى أن يسطع صباح يوم جديد، عله يتخلص منها، يحاول أن ينثرها، لكنه لا يقدر، لقد اعتبرها قناعاً يليق به متى شاء. وكيفما شاء، فهو يعرف أن هناك عالم لم يصحو منه، لكنه لا يريد أن يصحو منه بهذه الطريقة إن حدث ذلك قد نغرق في دوامة الماضي، فنتوه في بحر الحب، حينها لا يبقى من القلب إلا بقاياها.

- إذا ذهب العقل، ازدادت الغشاوة على العيون، وإذا ذهب عمر الإنسان لا شيء يعود، ففي غمرة الظلام يظهر الضوء، وتقطف فضيلة الصبر.
- الإنجاز الكبير يجعل صاحبه يكبر معه، لكن المصيبة الأكبر هي السكوت، سكوت الناس، وصمتهم عن الخطأ فماذا أقول للكلمات إن هي رفضت الخروج من فمي؟

- إن ترفض، يعني أن لا تكون ضمن خديعة تطالك، وتطلب منك أن تنصهر في أتونها لهذا أسمع صوتك لنفسك قبل كل شيء...، وادفع موجك إلى الأمام.

.. الأيام تجري بسرعة..

الكرامة غالية، الجوع كافر، والفقر ما زال عاطلاً عن العمل، بل إنه لو كان رجلاً لألقى به من شاهق، إنه غربة النفس والروح الغربة الحقيقية التي تتفصد وجعاً، وقرقاً وامتهان الناس لبعضهم البعض، انهدام الحب والانتماء، ولأن الهوى مسألة تفرك القلب نعانقها.. بعد أن نأخذ منه رشفتنا الأولى... تجتاحنا العواطف الجياشة، يصبح الوقت

بضعة ألوان تثمر جنوباً، وقرفاً، فالولاء يباع ويشترى بالمال، والمصالح الخاصة.

.. قوافل اللظى تنطفئ كالرماد..

فيرتمي لحمه على صدى الطرقات. كل شيء سهل ومباح لمن يدفع، لأنه سيملك والذكي ليس هو الذي يريد أرباحاً بل ذلك الذي يعرف كيف يقلل خسائره.. لهذا يصبح نشئت الذهن، والمطبات النفسية التي تهاجم الفرد بين الحين والحين أبرز فداحة من الألم. قال لها ذلك، وهو لا يدري إلى أين سيؤدي به هذا الطريق.

- وهل أنت راض عن نفسك؟

- كيف لا.. أنا لم أضع نصب عيني ما أريد، إلا بعد تفكير عميق.

- يا لجماعية الوجد والحرمات عندما تطرق الأبواب والعقول إنها تفتح الدروب المقفلة.

- كل المهام تؤدي إلى القصد، المهم الصمود وعدم الاستسلام.

.. ..

.. تطوقه الجدران السمكة..

تباغته العواصف، وهي تفتش في دواخله عن أثر الماضي، فتهرب منه أجمل الأعوام، يحسن دفاً أنفاسها العطرة.. يتأسف لابتعادها عنه، ويود لو بقيت تلبسه، حتى يتشاركها هدفاً واحداً، هو قطف المستقبل، ولكي لا تبقى حالة الحزن الطويلة إلى الأبد، ولكي يظل كل شيء على ما يرام.. يسافر على جناح الوقت عبر قوارب شمسية تتطلق إلى الأعلى..

روحه تضيء عتمة المدينة. نجومات حانية تطرق الأبواب دون استئذان تشعل نفسه فيعرف أنه عندما يتم اللقاء يصبح للحياة لون وطعم آخر.. يفوس وجدانه في لحم الماضي.. الأتربة تصفع وجهه صباح مساء.. زوجات الجيران ينظرن إليه باحتقار وتقزز.

- ما هو مقدر أن يكون سيكون وللرب وحده سوف أبوح بالسر،

كما أنتي لا أستطيع أن أعود للخلف.

- كم أحلم بصباح أبيض جديد.
- أنا مثلك مخلص وفقير ، لا أملك سوى قلب صادق ونظيف.

.. ..

.. تهمس في أذنيه..

تدعوه لتجاوز الجرح الذي سببته تلك النظرات المخملية ، حتى يستطيع أن يفكر فيما يجب أن يفعله. وهذا يعني أنه لا داعي للاهتمام بما يجب أن يكون ، وأن المستقبل كفيل بتناسي كل الآلام والأحزان ، فهناك فرق بين الجبن والخوف ، وكلما كانت الحياة صعبة ، كلما كان الانتصار أجمل ، والسعادة أعظم ، وأحياناً يصير الصمت أقوى من الكلام ..

.. ماض أحرق يطارده ومستقبل مفترض يلفه الغموض..

تتلاحق الأحداث التي ستحمل جل بصماته فيما بعد.. كان يضع رأسي بعد أن يعصب عيني في ثقب الحمام. لقد ظلت هذه المأساة مثمرة ، والأسوأ من ذلك أنه كان كلما هزه الشوق ، يضع وطنه في كأس جعة.

- هذا رجل بحاجة إلى طبيب نفسي يساعده على حل عقده النسائية.
- إنه يعتبر أن هذه أمور خاصة وأسرار يجب الاحتفاظ بها كنوع من الفروسية.

- كثيراً ما كان يفخر كيف ظل يرفع رأس أمته عبر السرير.

.. ..

.. صار يمي ويفكر لماذا يسحبه الطريق.. من أنفه كلما لسعت قدماه حرارة الأسفلت.. فهو يعرف الآن عنهم كل شيء.. وإن هو تكلم فإنه سيكشف أمرهم. وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، والزمن أحياناً يحاكم حسن النوايا ، فتذوب المبادئ في اللهفة.. لقد دخل عمق مشاعر الناس ، لذلك استطاع إيجاد الحل المناسب.. من أجل ابتسامات الأطفال والعجائز. هكذا أخبرته البلابل والفراشات الملونة ، لكن من بإمكانه أن يدق الجرس ، ولكي يرى الفقراء

الدنيا غير الدنيا من الذي سيبادر بقرع الخزان..؟!

- السياسة لا تعني أن نتخلى عن الأخلاق، والحقوق تكون وتؤخذ بالفعل، لا بإلقاء النصائح.

- هذا كلام ليس من السياسة في شيء، إنه حديث للحياة والمستقبل والناس فقط.

- عندي إحساس بالخوف، والنهاية القريبة. لا أدري كيف..!!

.. ..

.. لقد أعاد له هذا الحوار وعيه، الذي فقدته منذ زمن..

ورغم أنه لا يعرف ما هو المُخبأ له، إلا أنه أخبرنا إنه ليس بإمكانه العيش بدونها، فهي أو الموت.. هكذا ظل يخبرها. إنه شخص مختلف، لا بُغية له. إلا أن يرى والدته، تلبس أثواب السعادة، رغم أنه يعرف صعوبة ذلك..

.. ..

ينظر في وجه صديقه المعذب يحدق في عينيه الشاخصتين إلى السماء، ويسأل الموت هل قتلته قصائد الكرامة والفرح. أم قتله الجوع؟!

تداس الكرامة.. يذوي الكبرياء. ولكن لا بأس أمام قسوة الظروف.

- وضعك البائس يؤلمني، كما هو حالي. فكيف تتدبر أمرك؟!

- أنا أمتهن الشهادة؟!

- ماذا وكيف.. كرامتك.. وهل (!!)..

- إنها تفي بالغرض. فلماذا لا تحاول أنت كذلك.

- لا والله لن أفعلها، ولن يكتبها عليّ التاريخ.

.. ..

يذهب دون أن ينبس بينت شفة..، ما هذا الذي يحدث. وما هذا الذي يراه..؟! الفتى المخملي لا يريد أن يعمل، والده يكفيه ما يحتاجه، كما أنه لا يحب التعب، إنه شخص آخر، رجل سيء الصيت والسمعة،

يعشق النساء وأشياء أخرى.. تجتاحه الكوابيس، فيرتب فيها هواه، لأنه يعرف نفسه جيداً.. يذهب نحوه بذهن حاد، وحدث خاطف.. يسير بهمة ونشاط مخترقاً المسافات النائية.. فلقد طرد الخادم، لأنها طردت الشيطان الذي لم ينجح في بث سمومه فيها. بأن يمضي معها بعض الذكريات. لقد سقط ضحية نزواته سقوطاً كبيراً. كما أنها حافظت على بيتها ليس من أجل التقاليد وحديث الناس، بل لأن قناعها أكبر من ذلك بكثير.. رفض الخيانة، كما أن لغة الأرقام التي حاورها بها، زادتها ثقة في نفسها. بقدر ما زادتها في نفس الوقت احتقاراً له..

...

.. صار يتبعها بنظرة كمرآة تعكس نجوم السماء..

يتذكر والدته وإخوته، وهو ينظر إلى ما حدث ويحدث حوله، يتقدم منه حين إسفنجي رخو ويرتفع أمام ناظريه غضب يشكل حالة أولى من حالات الفعل، فيسافر في بحار التوق، يتذكر كيف ظل سوء الحظ يرافقه كظله، كلما اختلطت ألعاب الطفولة بالسياسة. يومها ضاع منه كل شيء.

...

..أنظر إلى ما يجري بعقلي..

أقيم على ذواتي لحظي، أرى سماء تعصر لظاها في دمي، فيقبع على وجهي طلع شائك، يشرب عطشه حتى الثمالة. فأطلق كلمات نحيلة خالية من الكلسترول، بذاتمة متطورة، وطلاقة تمتلك زمام أمرها بقوة.

- سأمتلك الماء والخضرة، والوجه الحسن، وأنتظر، فما هو كل شيء ينطلق نحو الفجر. حيث يتبرعم الحلم والمستقبل.

- إذن عش لحظاتي بكل همومها، انطلق خارج ذاتك، وابدأ من جديد، لأن فيه الفائدة.

- الأمور بخواتمها. وقلوب خلت من الحب والرحمة. لن يكتب لها النجاح، ولن تستمر.

...

.. تذكر كيف انكسر عمود هواه. من أجل عينيها. وهم يمتصون أصابعهم، ويرقصون على صفحات ليل ساخن... قوارب شمسية تطلق إلى عالم النجوم.. امرأة تشتعل بهواها، تحاكي أرضاً تثبت الألوان. والأسماء. عناقيد مغلقة في سلاسل الضوء، تبتسم للأحمر الوردي.. وميض للحزن الضاحك، قطوف ناعسة، ومفاوز لا تنتمي للهمسة الطائشة، تعانق نقطة ضوء تستيقظ في الرماد. توق عصي على البوح يدخله البنفسج فيعبره هواها ولظاها، يعانقها كلما أذفت لحظة ندى، تمسح برضاها حلم أيام قادمة، ينتظرها، وتنتظره..

...

.. في أذنه تهمس نخلة تلقى بجذائها في مهيب الريح. يدور حول نفسه، يحاول الهرب، يُحكّم على وجهه الغطاء ويهبط حتى العواء الأخير، يشرئب حول أفقه، يصبح طليق هواه، وهو يستسلم لها طوعاً، ويقشرها قطعة، قطعة، ثم ينسج من أحلامها بساطاً سحرياً يسير عليه فرحاً، ويحدق في الحائط دوار فجائي يكبله.

وحيث يكاد يقفز من بين ضلوعه، يقف أمامها، وفي عينيه ذلك البريق القديم.. هو لا يريد الشفقة، فقط الحب والاحترام.. يغوص في ذاته..

شوارع نفسه يراها مرصوفة على جانبي الطريق. تحاول فوانيسها أن تضيء نفسه المطفأة، وطرق جانبية يكبلها رذاذ الضباب، وانقبيل المحرقة، تلهب الشفاء الظمأى، وتهاجر إلى مبتغاها حمم لأرواح نائرة، تحكم طوقها حول عنقه. تعلن الأيدي التحامها به. ومعه.. لقد صار يعتقد أنه وحيد لأول مرة لذا يجب الخروج من بوتقة ذاته. وينطلق.

..

.. إنها التناقضات التي ظل يعيشها..

يتفرسها، وهم يرقصون على جراح نفسه، ويحاولون تخدير عذاباته، لقد اعتاد الانتماء إلى ذاكرته كلما هزته، وخره الألم، واجتاحته

الأزمات، ذاكرته المثقوبة تتسع ثقوبها، كلما عضته النوب التي لم ولن تنتهي، وكأنه في عقد دائم معها، أو أن حظًا تعسًا يلاحقه.. ينظر إلى وجه والدته كما يفعل دائمًا كلما يعضه الوجع...

ها هو يستحضر هذا الوجه الطيب، يحمله بين عينيه، ويظل سائرًا في طريقه إلى حيث لا يدري.. على جانبي الشارع أشجار مشدودة أغصانها تنظر إلى عين الشمس، ثم تدفع إليها رسائلها الخاصة طالبة منها رفدها بالماء، والهواء وبعض شعاع.

..الأغصان تطغى على أفقه، وتندمج به..

يلتقط أنفاسه، يحدق في الفضاء، ويحدق في وجهه الطريق الثعباني الطويل.. يتربع بذنه في فلك الكون، يصفع صمته المعهود، وينظر لأطفال الشارع الذين يلعبون فرحين وهم يمزجون أحلامهم بالجوع ..

...

تقوص عيناه في ثنايا المكان..

يلتقط هواها، وتلتقط هي شوقه المخبون.

تسير به عبر شيطان الظلم الأزلي.. يتقمص أوراق ذهنه دون ترتيب.

يتقدم ومضة أخرى، ويتوقف..

ينزف نصف وجهه ألوانًا متساقطة، مُتَشَجَّة بالسواد، يستقبل وجده الغاضب يلتف حول ذاته، يحاول أن يصل إلى أطراف اللحظة، وهو يفتش في حدود الرؤيا، عن رؤيا ما زال ينتظرها منذ مدة.

.. يتقدم مرة أخرى يعضه الخواء..

الأسمال البالية نتوءات تلتف حول الخاصرة، ممتدة نحو غبار المسافات، الأضواء ترشف الرياح العاتية بخيوطها الذهبية، تتداخل أصوات لا يعرف مصدرها، ، وينطلق الحوار عاليًا.. مبتورًا..

- اذهب إلى وجدك ومارس بوحك.

- فلست أنت من يهمنا الآن.

- صاحب المبدأ يحمل على كاهله مشروع تعمير البلاد وإنقاذها لذا

لا بد أن يستمر .

- كلنا نحب الوطن، لأنه يشكل ذاتيتنا وخصوصيتنا.
- كما أن كل مرحلة.ولها رجالاتها.

.. ..

.. الزمن يجري بسرعة.

الجوع كافر، والفقر عاطل عن الحياة، والفعل، لو كان هذا الفقر رجلاً لألقي به من علي. إنه عصب الغربة والألم، غربة الذات عن نفسها، والوجع الذي يشثت الفكر والقلب، ويهدم الحب والانتماء.

.. ..

.. هدأت عذابات نفسه، وسكنت بلايلها..

كثيرة هي الصور الملونة التي غابت في الذاكرة، وسقطت على الجدران.. لقد ظلت الحقيقة تدخل القلب والعقل، لكن ما شاهده وشعر به خلاف ذلك. العدل الذي يطلبه ليس أكثر من انتقام مختلف، جعله يضع ملامح رؤيته على عتبات الحقيقة فيقفز إلى الأمام... يحاور طيفه كلما اشتدت نار هواه. يقف أمامه بتدول عقله طارحاً العديد من الأسئلة.

هو هكذا كلما أزفت الظروف.

ووقعت الواقعة.. أشار إليه .تحركت شفتاه مبيته أن شعوره الرهيب بالمسئولية هو الذي سيقنته، يعذبه، لذا سيفعل كل ما تريده هذه الأم الشقية الصابرة سيحاول ذلك، مهما كلفه الأمر، رغم أنه متأكد أنه يقوم بمحاولة خاسرة لا أحد يشعر بها سواه.

..إنه يكره الظلم في عيون الناس..

يعشق الصبر، طهارة اليد، والذل، لذلك يشناق لكل تفاصيل بيته البسيط، كلما عضه الوجع، وانتابته موجات الحزن. تنطلق عيناه بإشارات دافئة إلى أمه. وهو يضع رأسه على ركبتهها...

..هنا الأيام والذكريات وحكايا الطفولة التي عشتها في هذه الحجرة.. هنا تعلمت كتابة حروف الحياة الأولى وخطواتها..

.. ..

يسترجع وعيه الذي غاب عنه للحظات..

يصفعهم بقوة ، يتزل في وجوههم في عقله . يتأفف ثم يتمزق ألماً وهو يسرد ما رآه من ظلم بعض الناس للبعض الآخر . وكيف أن أحدهم كذب المجني عليه ، وابتسم في وجه المعتدي الظالم..
- لا أستطيع انصافك دون وجود دليل ، أوقرينة ، تثبت وتؤكد ما تقول.

- لا يمكن أن تنال الطمأنينة والراحة ما دام أمثال هؤلاء هنا .
- لا تحرم نفسك من الحلم الذي غيبوه عنك في الواقع لأن لا أحد يحتاجه أكثر منك.

...

..يحترق شوقاً بحرارة المشاعر الملتهبة التي التصقت به...يستحم بعطر الإيمان..يدخل باحة المسجد التي تفصل بين عالمين متناقضين.. تضغط عليك نفسك محاسبية إياك بقوة ، فتصنع وشوشات ابليس... وتشرئب رؤاك.

...

الحياة تسري في عروق البيت المتهالك..

يفوص ضوء باهت في التواء الزقاق..يعانق أقدام البسطاء من الناس ، أنوثة عفية تسير على الطرقات..الألسن تدور في الأفواه..مئات الأيدي ، والأرجل تلطمه..وتركله موبخة.

- نحن ننتمي إلى أوطان لا تلبس ذاكرتها إلا في المناسبات وعبر نشرات الأخبار المميزة..ونخلعها عندما تطفأ الأنوار ، مسجونين بالهزات النفسية ، والانفعالات المتطرفة.

- الندم هو الخطأ الثاني الذي يجب أن تقترحه ، كما أن الليل خارج عن الزمن وعلى القانون.

...

..لقد رفض أن يظل كياناً معطلاً ، فهو يعرف أنه كلما حاصرته الظلمات يصبح الليل سيد الموقف ، والانتصار يأتي من تراكم

الصور، وفهم ما تتطلبه الظروف والأحوال، وعبر الإصرار، وليس الاختيار. يتقدم منه الشارع..تتقدم منه عيون الطيف..تذكر كيف رفض ما شاهده في المنديل، عندما جعل رقص الزار بعضا من هواه.. رغبة، وهروبا..يومها عانقته الأحلام بعد أن تركت هواها يتسرب إلى خلجاته فيقرر أن يفعل شيئا..

- الولاءات تباع وتشتري بالمال والمصالح الخاصة، فلا تتسرع في قرارك حتى لا تندم عليه.

- السعادة لها ثمن فإذا أردت الحظوة بها، عليك بدفع الثمن.

- الوطن كرامة والمكان الذي يجد فيه الإنسان كرامته هو وطنه. والعار ليس في نقص المال بل في ضعف النفوس.

- هل يعني هذا أن الكرامة لمن يدفع أكثر أم لمن ينجزها، ويقدمها..؟! ..

.. مازالت صرخة أمه تدوي في أذنه..كأنها طعنة خنجر من نار.. لقد ظلت تتألم كلما عاودتها ذكرى الألم.يوم أقاموا بجوارها تماثيلاً لعهرهم.. يعرف ذلك، ويتألم ثم يمسخ وجهه بابتسامتها وحوقلتها، ويمضي لا يلوي على شيء.. .. يتفلسف الصعداء..

وهو يغازل رعوس الشجر...الطبيعة هنا عجيبة...وغريبة..وباردة أيضا..

توضح مدى أهمية الشمس، النفط، ووحده العرب، يلقه هواها، كلما افتقد الدفء..هو يريد لها أن تسبح في روحه، في كله..لتصنع الرطوبة التي أكلت نصف أحلامه في بيته المتهالك. لذا يفرق في عينها كلما تقدمت منه غربة من غرياته، ويتوغل شوقاً بحبها وحب بلده.

- لقد عاندتني الأقدار، عاقبتني السماء، لذنب أجهله، أنا لا أعجز عن اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

- هو كذلك فما رأيك أنت؟

- رأيي هو رأيك لكن الصبر طيب.

...

هو من الذين يعزفون لحن هواهم..إنه من ضمن أفراد الجوقة...، ظل معهم يصول ويجول كلما طلبوا منه ذلك، إلى أن نفذ ضميره عنه غبار العفن.. أصبحت رغبته جامعة في أن يتخلص من همومه الفردية، وياتت علاقته مع الجماعة باهتة..، هناك أناس تشوهت أجسادهم، أما هو فقد تشوه من الداخل، صار يتساءل: الحياة قصيرة فلماذا يقضيها البعض في الكذب والنفاق..ويضحكون على الناس باسم...التعاون، والعدالة، واللحمة الواحدة، وفي نفس الوقت يلعبون وغيرهم، وهم لا يجدون شروى تقيرو.

- الحقيقة المرة، أفضل ألف مرة من الوهم المُريح.

- أحب من الرجال من هو مثلك خاصة إذا رفعت صحوة الضمير عنقها.

- لا تتحدث عن ذلك فهذا أمر لا أريده أن يتكرر أمامي، رغم صحته.

- لماذا هذا الموقف..؟

- لأنه شيء طبيعي، وهو ما يجب أن يكون.

...

..سقط الشمس المشرقة للمرة المليون ترسل بسماتها على عتبات الشوارع الفقيرة المترية في "سيدي بوزيد" إشراقة دائمة تعانق أحلامهم.. أطفال راثلون، يضحكون، ويلعبون بحبور بالغ، يرشفون فقراً مغلفاً بالفرج الغائب، وضحكات لا يخطئها الزمن في كل ومضة من شوارعها رجل لا يمكنك إلا أن تحبه، يشعرك عندما تجلس وحدك في الفضاء أنك حر الإرادة، ولكي لا تقدم على حماقة ما، ظلنا منك أن حالك سيتغير. هنا تقبض على عنق أحلامك التي لن تتحقق يوماً ما دامت الخيمة مهترئة.

..لا أحد يعلم ما يجول بقلبه..هاهم يسرقون من الناس الفرح ، هو يعرف ذلك ، ويعرف أيضا ، إنه إذا دخل الفجر من الباب ، هرب الفرح.. وبالتالي الكرامة من الشباك ، لذا صار ينقش همومه في ثياب محنته ، ليقبض على بعض أسباب الأمل ، ولكن دون جدوى.

.. ..

..يرصد أحداثًا ليست ناعمة..يدخل حياتنا دون استئذان..يستولي على القلوب والوجدان ، فيقودنا إلى حيث لا ندري ، أهو موت هذا القادم نجعله ، أم أمل نرجوه ، كلاهما حبتا عقد في عنق الأيام القادمة.. .. ينظر إلى أعلى ، يرفع عنقه عاليًا..

صوت خارج من عقب الفيض يعلو شيئًا ، فشيئًا..يصرخ ألمًا معتقدًا أنه يعيش كذبة اسمها الوطن ، ولأنه يعيش على هامش الحياة كم رغب أن يراه حمامة طليقة تحط أينما شاء وكيفما شاء.. ..كان يتحدث بألم ووجع..

كنت أضعه بين غياب وغياب..يقف وحلمه تحت صداد واحد.. الأضواء تتكسر على أسفلت الشارع ، تبعثر الناس ارتباكًا ، فالقضايا حسب النظام العالمي الجديد قابلة للالتهاب الوطني والقومي. تهمس في أذني ، أهمس في أذنيها ، أؤثتها في عقلي..وأنا أثلمس التفاصيل الخادعة ، وأنظر كيف تختفي الحقيقة ، بالمرأوغه الصامتة ، وأنتظر..هكذا تحدث عنها كما يتحدث وتر خائف على كمانه..

لقد ذهب لمقابلتهم بعد أن حاولوا الاعتداء عليه ، كما في مرة سابقة ، بدأ يفكر في كيفية مواجهة هؤلاء ، معتقدًا أن منع الشر أفضله ، ولكي يطمئن إلى أن لا تتطور الأمور أكثر.

- من الممكن أن يخدعوا الناس بعض الوقت لكن لن يستطيعوا خداعهم إلى ما لا نهاية.

- لا أريد أن أتذكر ما حدث سابقًا ، فاجترار الذكريات أحيانًا يزيد الألم ويحرك المواجع.

...

ينتابه القرف بسبب الألم النفسي الذي يتملكه.. يحمل كيس همومه، بعد أن أصبح وبيته قطعة واحدة، ينظر إلى ما يحدث، كل شيء سهل ومباح لمن يدفع أكثر.. تزداد خشيته من فقدان الصبر، قبل أن يصحو مما هو فيه.. فالكثير من الأمور لا تعجبه.. إنه لا يستطيع أن يعيش.. ما يشعر به، تلفه الساعات.. تعتصره بقوة.. يضربه إحساس مختلف، ولكنه متعب، وكأن عاصفة الوجد تضربه، كما الجميع.

- ألهذا ترصدني، وتراقبني..؟

- لهذا ولغير هذا أيضاً.

- يفضل أن تنتظر بعض الشيء.

- انظر إلى نفسك ولو للحظة.

...

..اللحظات مسروقة من شرعية القدر.. يرى كل من يصادفه عيوناً تشبه في أمره، يقاوم رغبة جارفة للبكاء كوجه مطلوب يرقص على حافة الفاجعة، نفوس سكنتها الحيرة والذهول.
القلب يقطر ألماً...

يمد الليل رداءه القاتل.. يزداد الألم الذي ما زال يراوده، يتناثر الإعياء.. فبعد عشرين وجعاً من عمر ذاكرته، صارت الأيام تقف على حافة جرح ميلاده في الوقت الذي لم يجد فيه مكاناً أحسن من قلب أمه يختبئ فيه.

...

...عادت به ذاكرته إلى الوراء...

ها هي تقف أمامه.. تذكرها.. تحركت تلايف عقله، لقد جاء الموت على غفلة، واحتفظها منه دون سابق إنذار، وبالتالي عرف، وكذلك الأسرة والبلدة قيمتها، الإنسان يحب بسرعة ويكره بسرعة، لكنه لا يعرف قيمة من يحبه، إلا عندما يفترقه، لهذا فإن الإنسان أكبر نعمة زرعها الخالق في هذا الكون..!!

...

ينظر إلى العالم الخارجي. فما يعتمل فيه حكايا متباينة. يفكر فيما يحدث من متغيرات كثيرة.

نحن لا نريد أن نترك كل شيء في عاداتنا، المهم عدم ترك الشيء الحسن، وتزواج ذلك مع الحياة العصرية التي تجري من حولنا بسرعة شيء جميل، يشعرك بأن الدنيا مليئة بالمشاكل، وتراكمها يترك أثرًا كبيرًا في النفس لهذا لا بد من تنازل طرف للآخر.

لقد انقضوا عليه كالذئاب الجائعة.

أسقط في يده، وبات لا يستطيع سوى أن يصمد أكثر، ورغم أنه كان يعرف أنهم سيجيئون إليه بالكارثة إلا أنه لم يعير الأمر كثير اهتمام... لقد كان الضرب مبرحًا... شكّلت الكرايبج المملحة رموزها الخالصة على جسده، ورغم خلافها البسيط معه في الكثير من الأحيان، إلا أنها وقفت صارخة في وجوههم بقوة فكان ما كان.. تتقدم منه تراويل حب هامسته. يتمدد على الرمل.. وجهها الذي يرسم تاريخ الأرض يدفعها كي تداوي خوفها بالصلاة.. أم بسيطة، مرهفة المشاعر تبحث عن دموعها والطبيعة المحيطة تنظر إليها، وهي تصغي إلى الله...

...

الصدى يفرق في الصمت ويضع بصمته على الجدران والأزقة العارية. شعاع غامض حزين، يقع ضحية الصمت الواقع على الجدران المتهالكة فيتساقط غضبًا ويصمت:

- لأن هناك فروقات بين الأسر والناس ووجوهات نظير القائمين على الأمر لا بد من الصراع.

- ولكن الحكمة واعتماد العقل من الضرورة بمكان.

- كيف تسكت عما فعلوه معكم، ؟ يجب معاقبتهم على هذا السلوك الشائن

- لن نسكت على ذلك نحن فقط في أول الشوط.

...

... أزاحت الأشجار خمارها الليلي، فقام مرفرفاً ليأتي بحرارة الماء من النهر.. امرأة عفوية فاتنة الجمال.. ممتلئة بالبساطة العذبة، وقوافل القادمين تسرح في وطن كل شيء فيه صامت حتى القاع.. جماله يتجمع في أسى طلاع.. تقف قرب دكة سيدها السابق محدقة، وهو يستريح في ظلال الله الخصبة، وصوت قادم من بعيد، يعض وجنتيها ويمضي ليففو على أهدابها.

- حب الوطن منذ الخلق الأول، بكل الألوان، أما حب الشريك فلن يكون إلا بلون واحد...

- أجل فالحياة لا تقتصر على الأبيض والأسود، بل هناك الرمادي وغيره أيضاً..

- ما يؤلمني هؤلاء الذين يبدلون ألوانهم ويطبعون جلودهم بذباب الكلام..

...

..تتقدم ثورة غضب مفاجئ...

تعانق أحلاماً محطمة ترقد في أعماق الروح، كما الشموس الغارقة في البحر.. عجوز يقف ملتصقاً للصدقات، بعض الأمل، والكثير من الألم يعمتلان في عينيه، تدفعانه دفعا، لاختيار ما يناسب حياته البسيطة، فكل شيء يبدأ من الواقع، وواقعه حالة خواء مريعة- فقد زوجته، وأبنائه، ويات بلا حاضنة.

- حياتي عذاب في عذاب.. لم أكن سعيداً في يوم من الأيام.

- ولكن لماذا يا عم..؟

..لقد كنت من أبرز الرياضيين في هذا البلد ...

لكن بعد أن كبرت، وهدني المرض كما ترى.. لم أجد سوى أن أمدّ يدي بصمت..، المرارة تختفي، ولكن لا بد من فعل ذلك كما أنني أحببتها بقوة رغم ذلك القطاع المتقدم من العمر.. لقد كنت قيساً، وهي ليلي..

إنها حبيبتي التي لم أغفر لها عندما عضني هواها.. لكنها غفرت لي.. وعندما كنت أحاول أن أصادر منها الكلام ، وأرسله إلى لغة الجسد كانت الروح هي التي تنتصر دائماً.

- كلام النساء للرجال متعة ، أما كلام الرجال للنساء ، فهو حلم جميل ، حتى لو طغت عليه الشتائم.

- أعرف ما تشعر به ، فلو كانت الخيل نساء لكانت الأولى في السباق ، تجاه القلوب الراغبة المتفتحة.

.. ..

.. يبحث عن دموعه الأولى وعشقه المخملي القديم.. يتهدد .. فلقد أحضر لها ما لم تحلم به.. كانت المرة الأولى.. التي يشعر فيها بالسعادة الحقيقية أنعرف لماذا؟ لأن موقفها في ذلك اللقاء الأخير أشعره أنه من الممكن أن يعيشاً معاً ، وهي بيت واحد ، ولأنها حملت بعضاً من سماته ، زادت محبتها عنده ، لأن الحب هو الأساس ، وهو وحده الذي يُغير الإنسان . يعانق موجهها آفقه.. فيمنح وجهها روحه بعض الفرح...

..النجوم تحاكي النجوم..

..الطبيعة تصفي إلى الله..

ينزل معها لتناول العشاء ، وهو يركب موجتها الأخيرة ، ويثرثر...

.. ..

يسحب نفساً موجعاً.. يرصف كلماته ثم يرشفها كلمة كلمة.. ويواصل.. ها أنت ترى يا بني أن حياتي كلها عذاب ومشاكل ليس لها أول من آخر ، ورغم أن الحب شيء جميل ومقدس.. إلا أنها تركتني إلى أين ؟ لا أدري..

بالضبط كما تركتني بلادي ، كما ترى.. يستمع إليه.. يتألم لعذابه ، وعدم الاهتمام به من قبل هؤلاء الذين يمارسون لعب الكريكت ، واللذة التي تسرق على عجل خلف الأبواب ، عندما تستيقظ أنوثة النساء المخنوقة دون وجل..

..كثيرة هي الأمور التي يعيشها الإنسان.

وعندما ينخره المستحيل الذي يصبح خلاف واختلاف يعكس عمق
أزمته النفسية..أحداث ألفت بظلالها على الماضي، والحاضر، ووجه
البشر جعلته يوقن، أنهم ما زالوا يجهلون قسوة الحياة .
إذن لماذا لا يبدأ من جديد.

حتى ولو للمرة الألف... وينسى الماضي بكل ماله، وما عليه،
يفكر أن لا يعد نفسه بشيء قيل ترتيب الأمور بشكل جيد، فلربما
يفشل هذه المرة أيضا، هذا القلق المفزع الذي يشده من ياقته، جعله
يظل سائراً مع خياله صوب أسرة هادئة، عبره يرسل بلسمه لصددمات
الأهل، وإبراز لدورة الأشياء من أجل التوصل من الوجع الذي يكيل
الذقون، والأطراف ومن أجل همسات الليل والأنباء، والأشياء التي
تطلق توفها للضياء، فتلقفها الأم سعيدة فرحة.

- يا بني، صحيح أنني ضلع منك لكن كلك مني
- لا أريد لك العذاب، كما وأني لا أود أن أورث أبنائي مرارة الأيام.
- أريد أن تظل سيد نفسك.
- وأريد أن أراك طليقة هواك.

...

..تغيب الحقيقة، ويبقى الهوى..

الحقيقة تنسى لكنها تظل ثابتة، كما الحب لا يمكن تجاوزها،
أو كأم هقدت ابنها، لكنها ضمته إلى صدرها من جديد..يلتف حول
نفسه يشير بإصبعه للبعيد. في حوار مع السكوت العميق، يمتلك
الكثير من السعادة التي تتخطى كل ما يعتقد أنه باهت.

...

..أقسم أن الشمس تشرق في اليوم ألف مرة ..

فكثيرة هي الأمور التي يعيشها الإنسان بالحزن، والألم..

وعندما يغرق في عينها يعرف كيف يكون المستحيل...، فيضان
كوني يشكل سفر رؤيا جديدة للعالم. يكتب عبر النار لحن الجوع،
بذاتة متطورة..

يرسم كلمة السر والعلن خريطة للوطن، ويعلق على صدره نجمة تزهو على الأنجم تحسدها الكواكب، وردة تسبح فوق سياج الدم اللاهث، وهو يسير في طريقه لدمه، وردة صار لها الإعصار بحراً وشوقاً، وأخرى مخالبا أشعلت الحديد.

.. امرأة ليس لها سوى مواقف علاقتها القوية بالمدير، حفاظاً على أسرارها، وكتمانها لها.. يطفو ماء الإثم على وجهه وجلده، يحاوره العطش الذكوري طويلاً، حيث لم يمارس الإرتواء منذ مدة، قلبه معلق بين العشق والفسق.. إنه يعرف كيف تتحدث عيناها، فهو يعرف الذين يتحدثون بعيونهم، وهي من هذا النوع من النساء كما أنه يعتقد أنه لم يخطئ الظن.. في ظنه تتداخل المواقف والرؤى...

ينظر إليه شذراً.. دون أن تسعفه الكلمات، لكن ملامحه الذائبة من التعب والجوع تطلق صفيها في التجمع الصغير المحيط به.

- غياب الأسباب يؤدي إلى نتائج معقدة وغير محمودة.
- كلما زاد الفقر وغابت الكرامة أو ديست زادت الهوة بين الناس.
- لا أحد يعرف ما يخبئ له المستقبل وكيف يكون؟!
- لا تنتظر إلى النصف الفارغ من الكأس فهناك نصف ممتلئ.

.. ..

.. هنا حالة مغايرة..

تلتف حولها.. تتطلق حازمة صارمة..

تتجلد أمامها.. وتحاول أن تخطو بنفسك..

تتساءل إلى أي مدى يظل هذا الهوس.. هما أختان، إحداهما ذاهبة إلى الموت وأخرى مقبلة على الحياة، وبأية طريقة حتى ولو بعرض الجسد.. بعد أن أصبحت نجمة في السماء، تتصدت أن تفرس جرحاً في نفسي، يقتلني كل يوم، أو لربما هي ظروفاها كما يقول بعض معارفها، لقد دفعها الجوع لتظل حبيسة مخدعه..

من هم تحت لوائه يعرفون ذلك..

.. يثرثون.. لكنهم يصمتون فجأة كلما نظر في وجوههم، فهو يضيق

كثيراً بمن يحاول نبش أخطائه. تلف "سيدي بوزيد" أردانها حول خاصرتها. تلتمس نهدها لغم الظلام، والحلم الطائش، ساعة الهديان، وسر التفاحة الأوى.

رجل منفي من الداخل يعانق "راسبوتين" وأولئك المتعاقدون مع الخوف لا يملكون سوى النظر والثرثرة..

..

الانتظار المعذب. يسير ببطيئاً في الطريق الترابي، الساعات تأتي برداذ موجات مفصلة من دماء، يطلق شفثيه على أبراج استطالات قامتها، يرشف صمتها الذي يقف على قدميه ويطلق لسانه فجأة.

- الفراشة المندلقة حول ضوءها تنوء من ثقل الضوء فما بالك لو كان ضوء رجل مطفأ..؟

- في هذه الحال، ستوء بما يحتمل وما لا يحتمل ولكن ما الذي يجبرها لذلك الفعل..؟!

- إنه الجوع الكافر الذي يدفع لقتل الكرامة..

- ولكن لماذا يفعل هذا الرجل ذلك، إنه يفرق في كل العيون.. أليس هذا كافياً.. ألا يراجع نفسه؟!

- ما يؤمني ما أراه... لقد أدمت ذلك، لذا صارت رغبتني في أن ينام رأسي فقط..

..

..أسمع صدى صوتي..

أحس بأنني أتقارب فأمد عيني في قسّماته، وهو يسكب مرمر غيمة على صحراء الغياب، يحاول أن يقطنها، يمد باب المدى لغزاً، يتفكك في صدفة مرمية على شاطئ البحر.

الفتنة نعاس يستيقظ بكثافة، يتبوأ نداء الرغبة، وصهيلها الجموح، فيعلم يقطف برتقالة القمر، وهو يرى بعض الكائنات البدائية، وهي تفتسل على حافة النهر، هنا ثلج وصهيل عواء مملح تنطلق به الدقائق ومراة مريعة معلقة على جدار قديم ليس ببعيد مشروع حياة تتكون

مربوطة بأوتار الليل، ومحاصرة بأحابيل الطفمة.

.. ..

.. يذهب إلى البحر لم يجده..

يفتش عنه في جيوب البسطاء..الذين يرسلون إليه همومهم كل يوم، أملين أن يأخذهم إلى مكان بعيد، يجدون فيه ما يحلمون به.. الشبابيك معلقة على صقيع القلب..والريح في الخارج تحوم على فصول تبدل أحلامها، دون أن تتبدل.

.. ..

..الرمال المتربة تقطع المسافة

مهولة تجاه أقدامه، تتسلل إليه عبر نافذته..يستحضرها، فيرى كيف تطوقه عيناها، رغم حشرجات الليل، اناس يحملون على أكتافهم حقول آبائهم وجنون قيظ المكان، يشاهد ذلك هيتوه فيها مع تفاصيله الصغيرة.

يتفرس صمتها..فتقطف ورد الندى...ثم تنحني لاطراقة رشقات النسيم..

.. ..

..جنون المدى..يحاور ذلك.

*تتشكل خيوط الضوء على ثغر المكان.

وهنيات بعمر الورد حالمت بالقرب البعيد.. يسكن ماء الحياء على الشارع الترابي الطويل، وزوايا الحائرة..عيون تقطف اللوعة.. ضجيج لألم وحشي يموي في حظائر النساء..وأنا أود أن أعالج مشاكل أهلي وفقرهم بعملي لا بكبدي ورثتي نقف معاً...

كل منا يجر ماضيه وراءه مثل ثعالب الصيد، أو مثلما تجر كلاب الأسكيمو زلاجة تحت عاصفة ثلجية.. فيصبح كل ذلك غرضاً كافياً للحب.

.. ..

أنظر إلى ما يحدث أمامي..

مثقل أبحث عن فضولتي..

الحلم بقايا امرأة من الطوفان.. أ عيد كائناتي إلى كائناتي وأنا
أعبر عيونهن بجغرافية خاصة، أرسمهن على الورق.. تملأني شهوة
مثلي، أتلظى، أرشف قهوتي، يصلني صوتها دون هاتف.. وجع صوتها
هو ذاته الذي كانت تعلمني جدتي إياه في حكاياها على المصطبة..

..

يطلب منه الاشتعال كلما خدره الاحتراق..

حط عليها الوحل.. فراح تراقب بقعاً ضوئية ترصع السماء.. بكت
شمس وأخذتها بحمة قديمة.. هي بيضاء حنطية لكن الليل سودها
بجناحيه.. صامت ينهش لحم الذرة المشوية..

أتلح بعكائيات محايدة.. تحكي كيف يزهر البرقوق، والحياة
تحف في كف رجل اختارته وليفاً بعد أن اكتشف أنه أصغر من نقطة
على سطر في قاموس حلمها..

..

صحوت من حلم جميل..

وجدت صورتي تملأ الصحف والأمكنة، ، والبوليس يبحث عني،
كنت أقف أنا وهي، وجدران صمتي أمام الباب محدقاً في الفضاء،
ظلت الصور ملونة غابت على الجدران.. أ حاول أن ألملمها تحت أبطي..،
تهرب مني ثم ثقف مع الحلم الغائب

..

ينتصب على حافة جرح ميلاده..

لم يجد له مكاناً أحسن من قلبي يختبئ فيه..

بعد عشرين وجعا من عمر ذاكرتي صارت الأيام تسير على قدم
عرجاء.. قصائد للنار والورد صارت.. وغرائق البلاد يفتصبون أحلامي
البكر.. لقد حطموا أجمل لوحات طفولتي.

البطولة التي ظلت تنتظر الخبز اليابس لربيع قرن.. فغصبت النجمات
وهي تبسم ل "موليسه" يومها بكت "قرطاج" وجع أبنائها الذين تحبهم

، حتى القمر كان ينظر مدهوشًا بلا ميالة ودون أن يفعل شيئًا .
سألته يومها أن ينقل إليهم وباء التمرد ، وينشره . وعندما حاول ذلك
أطفأوا عينيه ، وحرقوا لسانه ، فصارت كل الأماكن سواء للأعمى .
- الحق لا يوزع نفسه بل يعلنه من يتمسكون به .
- كذلك هي الكبرياء ، والكرامة إنها الطبيعة الخلقية للإنسان .
- لم أجد أحدًا مثلك يتحمل الكثير وربما يخسر الكثير .
- أنا لا أخسر سوى حرفي وفقري . لكني أريد أن أحرق باب الحزن ،
وأضرب الناقوس .
- في نفسك كرب وضيق فأنت الزمن الذي يلتف حولك كل هذا
الضوء .

...

.. لقد اختلطت عليه الأضواء

تداخلت الأمور فبات مقتنعًا بأن إصراره لا يجعله يظلم نفسه فلقد
وضع قدمه في هذا الملف منذ أن تغلفت شوارعها في أعماقه لقد
وجد بونًا كبيرًا بين الصورة والفكرة فما يشاهده ويراه ، قد لا
يشعر به غيره خاصة هؤلاء الذين يقبعون في بروجهم العاجية لذا عانق
الكلمات وعاندها محاولًا فك طلاسم اللحظات ، والانتقال بها إلى
ابتسامات النجوم .

لكنه غرس في عيون أيامه رغم فقره المدقع عيون الياسمين .
وصارت الكلمات ترسل سواحله إلى عينيها ، تصفع بها ذئبية هذا
العالم ، وبعد أن عرف أن الحقيقة أثقل على النفس أحيانًا ، إلا أنه لا
بد منها ، خاصة وأنه دون خرائط ، أو بوصلة لذا صار يراوح بين خط
الاستواء وجليد الشمال . ويلتقط بعض أسئلة يحاول أن يجد إجابة لها ،
دون أن يجد ذلك في الكثير من الأحيان .

- الحق وإن طال غيابه لا يضيع ولا تغيب حقيقته وأنا هنا لا أظلم
نفسي ، سنوات ألوانها سيئة وأنا الآن لست غاضبًا
- لقد كثرت حكايا النصب والاحتيال ، ولا من أراد أن يكشفها ،

لذلك كثر الضحايا بين الناس.

- هؤلاء يمارسون الكذب على الغير.. لقد تعودوا على ذلك لأنه يريحهم
ورغم أن الحقيقة هي الأفضل والأجدي إلا أنها بالنسبة لأمثالهم مرة..

...

..لقد ذهب الرجال والناس الذين لم يبق منهم سوى بعض رائحة يضحج
بها المكان حيث يحلم الإنسان دائماً بما ليس في ملكه أو قدرته..
تسقط قطرة غيم على وجه الفيض اللاهب..وعندما يؤذن لها بشكل
هش أن تجعل من الكلمات ميداناً يكون صوتها أقوى بكثير من
كل شيء في العالم.

- مكاني هنا لا يمكن لي أن أبتعد عن أهلي ومجتمعي أكثر من
ذلك قمة التحدي أن تبسم وفي عينيك ألف دمة.

- أنا مشتاق لقطف قصفه فرح..ها أنذا أنتظر ذلك كما اشتاق لهلال

العيد

- الأسيجة الكثيفة والعذابات المتراكمة تخلق جيراناً جيدين..
فألهم واحد.

- من لا يخشى الحقيقة، لا يمنع العالم من أن يراها.

...

..نبسم لبعضنا البعض.. يود لو ظل معها..يرى الأرض تتكلم لغة
البسطاء لأول مرة ، وكيف غاب الذين سرقوها ، وقتلوا كثيراً..ها
هي تقف شامخة تقول كلمتها بقوة الزلزال.تكتب مجدها ، ومجد
ناسها الحقيقي..هكذا قال الطيف وهو يبسم قبل أن يغيب في هالات
النور.

.. ..

..هموم متراكمة تمتلئ بها بيوت متهالكة.

يستحضر الأرض العضية ، ليستخرج قطع النجوم المدفونة في جوفها منذ بداية التكوين الأول..

يرتب جسده ومضة .. ومضة ، بعد أن يتأكد أن الأحلام التي لم تتحقق هي التي يعرفها .. فيد الزمن أكثر مهارة.. إنها تدقق في كل شيء لأنها تعرف كل شيء .. إنها تشبهه ، ويشبهها ، فهي له كله ، هذا ما ظل يشعر به ، لهذا ظل يدخل زهرة لا تنام.. ويقدم الصبر لمن هو في بيت الآباء والأجداد.

أغاني روحه تضيء عتمة المدينة..

ضوء الشمس أمل ربما يأتي ليطرق أبواب أرواحهم ، دون استئذان تذكر كيف ذبلت أوراقها ، واستسلمت لأحزانها في ذلك اليوم ، فقتلت وحدتها ، وأضاءت نفسها بالعديد من الموائيق الروحية الشفيفة الواصلة بين روحيهما .

إنها تسافر على أجنحة الحضور الواعد لصفاء الروح والوجدان ، فتعرف إنه عندما يتم اللقاء يصبح للمياه لون وطعم آخر.

- ما حدث واقع لا راد له ، وما يحدث علاقة محرمة بين الحاكم والناس ، لأن هناك الكثير ممن يمشون على الشوك.

- كما أن هناك من لا يشعرون بوخزة ضمير لهذا لا بد من الفعل.

- المهم أن تنتهي حالة الرتابة المقيتة.

- وهل تعتقد أن حياة الوهم مناسبة لك ، ولنا .

- ليس هكذا ، بل وجوب ضرورة تخفيف الوهم ، ليصبح حقيقة.

.. ..

..دموع "سيدي بوزيد" الساخنة تبكي غدر الزمان ..

ينظر إليها ، فيشعر ، وكأنه يجلس على شاطئ بحر هائج ، تتصادم فيه الأمواج ، وهو غارق بينها ، تلممه موجة وترده أخرى ، دافعة إياه إلى مكان جديد مختلف ، فتهمس لها النجوم ، وهي تطلق وهماً يرقص تحت ضوء القمر.

"موجات" تسونامية" عنيفة لا تتكرر إلا مرة واحدة ، ولا تجعل البطن خاوياً فقط ، بل وتقلق الناس أيضاً ..تتضم التفاصيل إلى التفاصيل.. الشيطان داخل المذبح..

إنه كما هو دائماً في المقدمة ، يعد بالخبز الذي لم يتحقق أحياناً ، وأخرى بالشبور وعظائم الأمور لمن يطلبه .يصفق أفراد الجوقة ، يطبلون ، ويزمرون ، لقد استمرأوا ذلك ، فالسيد سيلقي لهم بعض فتاته..إنهم أمراء دون مال ، أو حشمة..الكروسي هو الأهم بالنسبة لهم ، أكثر بكثير من تحقيق أحلام الناس المحكومين بأقانيم الإيمان ، الإرادة ، والأمنيات. نجومية لها عنوان واحد وثابت ، يعم كل الأرض المركز الرئيس والدائم. الالتزام به ذاكرة ، يريد الحاكم إلغاؤها ، حتى يلذ له طعامه وشرابه ، ويصبح في مزاج حسن..

.. .

أنظر إلى ما يدور حولي بعقلي..لأكتشف عالمي الخاص ، وكذلك عالمه ، وهو ما لا يمكن توفره في الأيام العادية..شيء يتسلل منه في ومضة عين ، يقدم هواء بليل الحطام ، على ركاب الكلمات التي تمط فوق همسات الليل حيزومها .

- إنها مدينتي التي أريد أن أعيش فيها كل ذكرياتي ، وباقي حياتي.

- لا تخافي ، سيكون كل شيء كما تهوين ، وترغبين يا أمي. فلريما تتغير الظروف . انتظري فقط بعض الشيء.

- هذا أكيد فلن يبقى كل شيء على حاله ، لأن دوام الحال من المحال ، كما أن لكل حسبة ثمن.

- لكن أنا لم ولن أتغير..

- هذا يعني أنك قدمت نفسك بشكل صحيح.
- هكذا هي الأمومة إنها مستودع الأسرار الخاصة ، والعامية إنها حاضنة الوطن.

...

دارت الأمور دورتها ، صار اعتقاده بها أكبر مع أنه يعرف أن الناس في الكثير من الأحيان يخافون من دورة الأيام ، تغير الكثير لكن الأمر بقي كما هو ، ليس من استراحة في الطريق الطويل.
السواد القاتم هو الذي يسيطر على حياة العائلة.. عمله الهامشي المتقطع ، لا يفي بحاجة الأسرة البسيطة ، رغم قلة احتياجاتها ، ما يعني أن حياتها دون حياة ، فالرفاه بالنسبة لها ، بيت صغير ، ووجبة عشاء فقيرة ، وجملة من الأحلام ، يعيشون لأجلها ، يحققون فيها طموحاتهم.. وهم يشربون خطابات تعود عليها الجميع.
كتلة بشرية صامته عزوفة عن كل شيء...
حتى التغيير الذي ترنو إليه وتريده ، لا تستطيع إعلانه أو التعبير عنه.

...

تقدمت منه كقطاه هاربة...

تقفز ثم تنتظر ، وتقفز مرة أخرى من جديد ، فهي لا تثق بأحد من الرجال ، لا تثق بأحد مطلقاً ، ربما هذا هو السبب في رفضها لكل من يحاول التعرف عليها.. لقد أصبحت حياتها كابوساً ، بسبب ما تراه ويحدث..

فما هو السر الذي تحمله ، وما هو البعد الآخر الذي تنتظره...؟

...

لقد ظلت تخاف من الحياة ، لكنها عندما عرفت أهميتها ، وكيف صار يلعب بها ، منذ ذلك الوقت تغير موقفها تماماً.

- ماذا تريدين..؟

- أريد أن أتحدث معك بضع كلمات. فأنا أبحث عن عمل..لعلك

ترشدني.

- تفضلي سأساعدك.

- يجب أن لا تفكر أنني من هؤلاء اللواتي يلقين بأنفسهن للتهلكة.

.. ..

.. هو رجل له موقفه المتقدم..

يحب لعب الورق، وقراءة أبواب التعارف في المجالات لهذا يبحث فيها دائماً عن الراغبات في الزواج.. تفرحه النساء والتوقعات الحاملة وكيفية إلقاء شباكه لاصطياد العزباوات.

لقد دفعها فقرها المدقع لتصبح سكرتيرته ذات الخطوة المتقدمة لديه، فهي سيدة ولا كل النساء، أنيقة، رشيقة، شهاداتها العلمية المتقدمة، تتمثل في جمالها الآخاذ، رغبة المسئول، ورضاه عنها، التي ومنذ أن صارت مديرة مكتبه بات يراها أكثر جمالاً..

لقد شعر بأنه يحبها منذ ابتداء فجر العمل، وأنها هي المرأة التي يريد لها، وينظرها، حديثها، شكلها، منطقتها..إنها تختلف بكليتها عن شريكته التي لا تفهم من الحياة الزوجية سوى إنتاج الأطفال، وخدمة زوجها فقط، هي الوقت الذي يريد فيه امرأة، وليست أم أطفال.

هذا ما يشعر به، وبشيره..لذلك يريد لها، ولا يستطيع أن يعيش بدونها، ولو للحظة واحدة..أنه يود أن تكون له وحده، ولقد باتت تعرف ذلك، وهو أيضاً.

.. ..

كانت نظراته تحكي العديد من القصص، كل الأيام تسعى لكي تكون شاهداً على ما يحدث، اللحظات تتداخل ساخنة بين مساحات الصدق، والكذب، صرخاتها تملأ الكون.

تكور في حضنه كقطعة سيامية أليفة، لا يسمع سوى أنفاسه.. نزع ورقة التوت النجومية التي حملتها على كاهلها لمدة طويلة، بعد أن سرقتة عناوين النجاح والشهرة كثيراً..حيث ظلت المفاخدة حالة

أسبوعية يمارسانها ، ولكي يؤكد انتصاراته عبر السرير ، وأيضاً حرصه الزائف على العمل صار يضع توقعه أثناء قمة نشوته عبر كأس من الشمبانيا وأحياناً من النبيذ المعتق.

رجل يعتقد أنه يجيد فهم نفسه...

رغم أنه لا يجيد فهم الناس ، وآخر وزع سعادته على الجميع ، وأبقى الأحزان له وحده ، في كل مرة تحس بأنه يدهشك لما يحمله من وداعة ، وطهر وعشق للشموس والنجمات التي تبسم ، وثالث له قلبان ، قلب يفرق والثاني ينزف..

إنها أكثر جمالاً.. شعرت أنه يجبها منذ أول مرة أطلق فيها هذه الكلمة ، وأنه هو الرجل الذي تنتظره ، وتريده كما أن لا غنى له عنها ، رجل له سلطوته الناعمة. حديثه وسامته ، لكنه معها ليس حراً إنه غادر ومخادع ، رغم موقعه المتقدم في العمل ، ما جعلها تقتنع بأن كل الرجال دجالون ، غشاشون ، الكذب يجري في عروقهم ، إنهم يحبون ، ويكرهون. فلقد تخلى عنها بعد أن فتح الدردنيل فأمنت به ، وحرابت كل العالم من أجله.

لقد رأت فيه كلب حقير ، بعد أن أخذها للمتعة والتسلية ، لقد تسنى له ذلك بعد أن غسل دماغها بكلامه المعسول ، هكذا ظل هذا الكاذب الأكبر يقهر الناس ، وإن كان يضعف عند أول سيدة ، وبعد أن تصبح ملك يمينه يلفظها ، ثم يبدأ البحث عن صيد جديد.

...

امرأة تعشق النميمة..

تدفق نهرًا من الصراحة. مادة ثرية بإجابات حاذقة ، صادقة ، ولكنها شديدة الخصوصية ، والخصوبة.

- لا تسمع ما يتعلق بالخصوبة ، لا تتحدث عنها ، ولا تنظر إليها ، قال القدامى.

- الجمال هو القيمة الكلية الكبرى ، عند الفرد ، لكن الحق والحقيقة هي التي تهيم المجموع.

- حتى العواطف عند البعض حسابات وأرقام، هذا لا يجوز أنه أمر لم يعد له ذلك الاعتبار في عالم اليوم.
- إذن، ليس أفضل من الانتظار.

...

"توميّة"، وردة جورية يانعة، عفيفة، طاهرة، تميزها بالنسبة إليه، يعني الكثير الكثير، في داخلها طفل خفي يدغدغ أحاسيسها، هي كلها له، وتعتقد أنه بالنسبة لها كذلك، إنه النفس الذي تتففسه، ولكي يكون اللقاء القادم بينهما حميمياً، وموحداً ظلت المنافسة بينه وبين ذاته صعبة، والتحدي ليس محايداً كذلك.. إنه في حيرة من أمره. هو يريد لها، ولكن ضيق ذات اليد، لا تساعد على ذلك.. فاستمرار الحال من المحال، لقد شرح لها الأمر، طائلاً منها أن تنتظره، لقد آلمه تركه لها.

صارت تتساءل، لماذا حدث ذلك؟

وما الذي يقصده، وكيف يريد لها، وفي نفس الوقت لا يريد لها.
إنها تهواه بقدر ما تحب حرقتها الشخصية، وإنسانيتها، لكنه معها، يجب أن لا يكون حرّاً!!

لذا جاءت إليه تسألها، هل يسافر أم يبقى.. وهل يتركها، وينتصر للظروف، إنها بحاجة لمعرفة ما يجري، فالعالم ضيق، وصغير، والوقت يجري بسرعة، والحقيقة هي التي تنتصر دائماً.

- يجب أن تخبرني برأيك وموقفك كن حاسماً، أنا لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

- لكنني في حالة عدم توازن.. لذلك فالتحدي بالنسبة إليك تتنابه بعض الصعوبات.

- ما العمل إذن...!!

- التريص، الانتباه، ثم الانتظار..

- كثيرة هي المعلومات المغلوطة.. وكثيرة هي المواقف، والمفاهيم الخاطئة...

والعديد من الناس يطلقون أحلامهم، لكنهم لا يستطيعون تحقيقها، هنا من يضحك لما حدث، وهناك من يضحك من القهر والغبن، وهو ليس بقدرته أن يحقق لها كل أحلامها.

لقد سألتها أن ترى بعينيها وتشاهد، لذلك قذف بحمم قلبه اللاهبة، صوب كل الأشياء، فتناوشتها أفكار نقية كحبات المطر، بعد أن عصرت عينيها لحظة ابتعادها عنه، فانطلق في كلماته لتظلل حنجرتيهما معاً.

- يا لهذه المرأة الرائعة، إن تميزها يعني الكثير..الكثير.

- في داخل كل امرأة طفل خفي يدغدغ أحاسيسها.

- حبك لي، أما أنا فكلي لك وحدك. أريد أن أتففس الهواء الذي تنفسه، ليكون اللقاء حميمياً.

...

..لقد أحبها رغم فقره..

..أحبها بكل جوانحه، لم يستطع أن يثبت لها ذلك، سوى أن يقدم إليها ابتسامة فجرية، ووردة حمراء، مؤكداً لها ما يحتمل تجاهها في قلبه..إنه يتمناها زوجة له. ولكن ما باليد حيلة..لا عمل..لا مال..ولا شيء يذكر أيضاً.

..تذهب به الأفكار في كل الاتجاهات.

يتقدم منه الطيف فاردأ جناحيه، وكأنه يحاول أن يقيه من حرارة الهموم المتلاحقة، التي تتنابه بين الحين، والحين..، يشكر الله في سره..وهو يرى الطيف يتقدم منه، كما كان يشكره دائماً في العلن..

يذهب إلى حجرته..يسرقه النوم الذي يحاول أن يسرق نفسه منه، لكنه لا يستطيع الابتعاد عنه.

لقد تذكر والدته التي كانت تعلم بناتها دائماً، بأن أفسى ما يبهد المرأة، هو غياب الكرامة، والأحبة، وإن الإنسان مهما كان غنياً أو فقيراً يظل بحاجة إلى بعض الفرح. ذلك الشيء الجميل الذي لم تمتلكه

أسرهم الصغيرة حتى الآن.

...

ينظر إلى الجموع..

يتذكر فقره، وهوام.

لقد حلم بها كثيرًا، تحدى الموت من أجلها، لقد ظل يتمنى،
ويحاول أن يحقق ما يتمناه، رغم الشقاء الذي لاقاه وسيلاقيه. يجب
أن لا يظل الإنسان مقيداً..والا سيظل يؤلمه ضميره، كونه لم يستطع
تحقيق ما يروم، ويهوى حتى تلك اللحظة.

...

أنظر إلى كل ما حولي.

يصيبني الدوار، وأنا ألمس صوتها في بدني رعشة تأخذني إلى
مقامات الحلول، واللحظات من لحاظ عينها تطير صوب شهوات
أميرة، رشقت ماء الجداول على وجه البوادي. فكيف أفيض فيك،
كي يأخذني الجنون، وأستكين.

يستمر الدوار، وهنا يأتي ملكوت الرب الذي يشكل بداية التاريخ
الجديد الذي لم نصله بعد، يأتي الحب الطفولي يسحبه إلى الماضي،
حيث مرحلة الدراسة الثانوية.. الطلبة زرافات ووحداناً..البؤس لا يفرق
بين كبير وصغير..الحب والماء، يتدفقان من الأرض الطيبة، لكنهما
لا يصلان إلى البيوت، هكذا كان المحبون الصغار يقولون، والمحبون
لا يكذبون.

...

تمضغ بعضًا من حكايته تشرب كأسًا من فرح على الريق..تنام في
البللور، فهي لم تحتمل سجنها تحت جلد الزجاج..فالكحل في عينها
تفسده المدينة، لذا تمشي حافية على حيل الهواء، لا تقيدها مسافات
الصور..تغسل وجهها بماء البحر..ترضعك بقايا عافيتها..

ما زالت تقف بين عينيه، تحديق في وجهه، ورغم أن الوقت يسرقه
بعد أن مال بين أضلاعها إتيه، إلا أنها تفشل في استدراج النسيان..

..هدأ وسكن كدمعة صافية..فالجوع في أحيان كثيرة أقوى من الكبرياء..إنه الكفر بعينه، لهذا ظل صامداً ، فشل الفشل في ترويضه، ومثل بطن يتهياً للولادة، تقف صورة فارس على جدار الغرفة، يمارس الفرحة على استحياء، وقطار سري يمر في شوارع التيه والضباب..

يمخر عباب الفضاء، ونظرات الناس السريعة، المتلاحقة..

...

يستغرب من الحب الذي يأتي فجأة.. لقد كان حباً طفولياً ، إلا أنه صار محيراً ، لقد أجبرته نفسه عليه ، لأنه لم يحسب للخطوة التالية ، وفقدان الحب، وإن المكان الذي يوجد فيه الجميع في مدينته سجن واحد ، فخارج *سيدي بوزيد* كداخل جدرانها. بالنسبة لأمثاله. هكذا هو حبه، إنه من أصعب وأعقد أنواع الحب..هو فقير، لكنه لا يملك غير المروءة التي علمته دائماً أن من يحب لا يكره، بل ويتحمل كامل التبعات.

- أرجو أن تتفاعل معي بشكل إنساني، أعطني وقتي، وعندما تزداد ثقتك بي، عندها لن أرفضك.

- للمال دوره في تغيير المواقف ولي الأعناق.

- لكن مشاعري هي الأصدق من كل شيء، لقد كانت كذلك وما زالت.

...

ما أجمل الأيام إن استطاع الإنسان اختيار أحلامه، هكذا أعلمه الطيف، إذ من الممكن خداع الإنسان بالكلام المعسول، حتى هؤلاء الذين يعتبرون إنهم قريبون منه، ولكن الحقيقة الساطعة هي الأقوى دائماً..يفرق في حلمه. ينادي طيفه الذي يومئ إليه ببعض الإشارات، حتى يراه من جديد.

إنه يحمل معه جملة من النصائح، ستثنيه عن أفعال تفرق الرؤوس والذقون هي الطين، أفعال ظل يخشاها كل من هم حوله، أن هي

حدثت، لقد استوعب نضائح الطيف، واقتنع بأن الزمن هو الذي يحكم على النفس بالموت أو الحياة. فالإنسان جزء من الطبيعة وكل الأشياء. إنما هي على قيد الحياة، ولا أحد يستطيع محاسبة الآخر على مكنونات صدره، وعلى ما في نفسه، خاصة وإن ما في القلب قد يكون شيء آخر.

- ما بيننا أكبر من ورقة تكتب، ما بيننا هو الحب، لماذا إذن لا نتزوج فوراً.

- صحيح أن كل شخص حر التصرف في جسده، لكن الارتباط دون أجندة لا يجوز، ولا يعقل.

- هكذا كان القدامى يفعلون.

- نحن أبناء اليوم، ولا نستطيع تجاهل الواقع الذي نعيشه.

- لكن من يحبون بعضهم البعض يكسرون كل الحواجز، ويبقون على تواصلهم، هذا هو الحب الحقيقي.

- وهل هناك مثل هذا الحب؟

- نعم هناك الكثير من الحالات لما نحن فيه.

...

..هي تحبه وتريده..

يظهر ذلك في حديثها، ملامحها، وتفاصيل يومها أيضاً..

فظروفها غير ظروفه، لقد باتت ماضٍ أشفق عليه، رغم أنه اعتبرها مستقبلاً القادم، لقد ظل هذا الشعور يلاحقه منذ أن تسلل حبها إلى صدره فصارت عطره الذي يتنفسه صباح مساء.. قليل من الحب يشفي قلب الإنسان، إنه يعرف ذلك، والجميع يؤمنون بهذا الذي يؤمن به، ودليل ذلك أنها باتت بالنسبة إليه الأمر النهائي، لقد صارت رغبته جامحة، في أن تشاركه مشاعره، فمنذ أن التقى بها، وهو على هذه الحال، إنه يعيش معها فوق السحاب، لأنه يؤمن بأن الإخلاص هو الباقي، وأن من يخون قلبه، سيتخلى بالضرورة عن هموم وطنه...

...

..طلعة أخرى من الأمل، تفعم عقله ووجدانه، يرشفها بكليتها
محاولاً أن ينتصر على تراجعها، إنه الصبر الذي يخترق كل الحواجز،
ويدفع الترجس كي يرفرف على جبين النهر...
الطاعة العمياء، والغفلة شيء آخر..

وجعه المطرز عشقاً في هواها، يلعن السكوت، لأنه لا يقدر الأوجاع
التي تركتها الحياة، وضيق ذات الحال في نفسه، لا أحد يقدر ما به،
وما يعانیه، يودع مهمه التحل شوقه، ورغم أنه يتناسى خصوصية ما
به، وما ذهب إليه في مهمته الحياتية، إلا أنه يقبع ضمن قلبه خجولاً،
وإن كان يتمنى أن تظل الحلم الأجل في حياته.
..إنه من هؤلاء الذين يشربون الصبر شرباً.

يحب الجميع، ويُحبه الجميع، كونه ينقش في نفوس البسطاء
شظايا الأمل مقدرًا كيف تفعل فعلها، عند من يحبه، ومن لا يُحبه.
- أنت تعيش في عالم آخر، عالم خيالي بعيد جداً، ليس كهذا
المكان الذي نحن فيه عالم غير عالم "سيدي بوزيد".
- كثر هم الأعداء، والخوف من الظلم يبيع للناس التصرف.

الطيف يرفرف بجناحيه على المكان.. يستحضر ثرثرة التممد
الأول...لقد عرف كيف يتجاوز عن الحدود عندما يريدون شيئاً، أما
إذا أراد الناس إنجاز ما يروق لهم، فالسدود والحدود هي الجواب، هذا
ما ظل يشغل عقله، إنه القاسم المشترك بينه وبين الطيف، إنه تناقض
موحش، لا يجوز بالمطلق.

.. صار يتساءل:

.. لماذا لا تهتز مشاعرهم، وفيما إذا كانوا يعانون، ويشعرون
بشعور الناس أم لا..؟!.

لقد ظل هذا العذاب يأكله..فيتألم للحياة التي يقتلها الشر وظلم
الإنسان لأخيه الإنسان..فيتألم أسفاً..

- رغم سطوتهم، هم جبناء، خوفهم يأكلهم من الداخل، مثل الداء،
والسبب ظلمهم للناس، الذي زاد من عداوتهم لهم.

- لكنهم عندما تقلت الأمور من عقالها ، يتأسفون ، وأن ذلك في آخر المطاف.

- الأسف لا يحل المشكلة.

- نحن أولى بمشاكلنا ، فلا فائدة منهم ، لأن من به شوق يمرضه.

- أعرف العذاب الذي أنت فيه كان من المفروض أن نتخذ القرار منذ زمن ، لم نفضل ذلك ، وهذا ليس ذنبنا ، إنه ذنب البيئة الاجتماعية التي شربت ثقافة التسلط.

.. ..

..تتكاثف اللحظات مع لحظاتها..

تضغط على عقله الذي عرف كيف كانت تتطعم في كالمراة.
كلما ارتدى لحم الناس على قماش الشوارع. يمر على الدهاليز
السرية ، للشهوة والشهادة.. نقيض ونقيضه ، ثم ينزل تدريجياً سلم القيم
التي عاشها عمراً ، وانتمى إليها.

.. ..

كنت أقف أمامه ..

أطلب ذاكرته.. أعتصرها.. وأنقشها في تلافيف عقلي.. يؤلمه وجع
الأم الصابرة ، والأخوات اللواتي يعانقن أسوار المنزل القديم كل يوم ،
لا عريس يتقدم لمن هن داخل البيت ، ولا أمل بفأل حسن.
..كنت يا أمي تشككيني في نفسي.. همست الفتاة لوالدتها
خجلاً ، قبل أن تستدير نحو أختها التي كان جوابها في غالب الأحيان
صمتاً.

ظلت تنظر إلى جسمي ، ونضوج صدري كشيء غريب ، كأمانة
أحمل ثقلها حتى يأتي أول طالب لتعطيه أمانته..

..طبور بيضاء تشكل جوقه تعزف لحن الهوى..

نجحت في تطويقه ، قبل أن يطوقها.. وهج من بين الغيوم يطل.. يلون
النشاب ، ويلبسها عطوراً تطوي شعر الليالي بعد أن يرشقها بحنين هواه ،
ثم ينسحب.

..عيون مكابرة، تحديق في الوجوه..

الصمت يطبق على كل الأرجاء، وكثيرون هم الذين يعيون التحايل على الحقيقة، ما يؤكد أننا ننتهي إلى أوطان لا تلبس ذاكرتها إلا في المناسبات، وعبر نشرات الأخبار المميزة، وتخلعها عندما تنطق الأنوار، زعماءنا مسجونون بالهزات النفسية، والانفعالات المتناقضة. يدور الحديث دون كلام، فلفة العيون في الكثير من الأحيان تفي بالغرض..

- أريد أن أعيش أحلامي الخاصة، لذا أطرح الأسئلة التي لم يجب عليها أحد حتى الآن.

- لقد عاندتك الأقدار، وكأن السماء تعاقبك لذنب أجهله، ويجعله الجميع.

- لا كياسة أمام الحق، فهو أجدر بأن يحق وأنا لن أعجز عن اتخاذ القرار المناسب، في الوقت المناسب.

.. ..

يحاول تجاوز وجعه بامتصاص آخر قطرة من كأس الشاي.. ثقب في سقف ذهنه، يحديق في وجهه.. وهذا أمر مباح في مثل حاله، وهو لا زال يبحث عن بقايا عمر ربما يكون سعيداً، كثيراً يأمل بذلك، أنه يعرف كيف يحصل الإنسان على ما يجب إذا ما خانته الحظ أحياناً، وفي الكثير من الأحيان تلاحقه التعاسة.

هذا ما حدث، وما كان.

لهذا ظل كمومياء متحركة، تحيط بها جملة من الظروف عديمة اللون والرائحة.. لقد ترك سوء الحظ وغدر الزمان وجعاً تعجز الجبال عن حمله.. خانته الظروف، وتخلى عنه الجميع، عدا أمه، و"تومية" التي تشكل حلمه الطاغى اللذيذ.

صارت رغبته تراوح بينه وبين آمال عريضة، ربما تتحقق، وربما لا تتحقق، فمن المخطئ يا ترى؟! السلطة أم البسطاء من الناس أمثاله. السلطة مع المال قوة، والكرامة مع الفقر ضعف، ولا بد من الصدام.

عند ذلك يكون الصبر هو المنتصر.

.. ..

ينزف الجرح، يصبح بطعم الامتصاص أو اللقافة..
والفقراء هم الذين يجب أن يتحملوا، لأنهم وحدهم الذين يأتونها إذا
نادى المنادى..

رؤيا جديدة تشكل مشروع حياة تتكون، أرجوحة مشدود بأحابيل
الطفلة، لذا يحصن ذاته من جديد بما يهوى.. فلقد دخلت الأحداث
مشاعر الناس، لذلك يجب عدم فقدان الأمل في التصحيح من أجل
اليسطاء من الناس، وكذلك رغبات الأطفال.

- لقد لاحظت عليك الكثير من المعاناة منذ متى ذلك، ولماذا؟
- أنا أتلظى بناري وعذابي، كل ما هو سيء منذ انفجار النجوم،
وحتى شواطئ تونس، فلا تتركيني لوحدي.

.. ..

.. "سيدي بوزيد" مدينة حالمة، لكنها تتألم وهي تمشط شعرها
بألوميض.

.. أنياب حادة تنفرز في اللحم البشري.. رائحة الشواء، تستحضر
أنياب "دراكولا" وتظهر في عين "نيرون" وهو يراقص "يوبايا" كلاب
في العقل تبيع، ولا يستطيع لجامها، عكس ما يراد لها.
تدنو المسافات من الضوء نحو الأفق، "سلطعونات" الماء تحرق في
الوجوه مخدرة، ثم تتهاوى في السقوط وهي تفرق بين الأمواج شيئاً
فشيئاً.. الأم واحدة طافحة بالخضرة، والصبر، والماء الزلال، الذي
يحتمي بالصخور..

أعشاب الأرض الطيبة في حالة من النشوة، تلامس حتمية اللقاء،
إنه يعرف أنه ليس الأول ولا العاشر الذي يعتصره موقف كهذا.

- لا أدري كيف، وماذا أفعل؟ فكلما أقدم أوراقي ينالني بعض
الألم، لكنه ينتهي بعد ذلك؟
- انتظر.. واصبر.

- لقد صبرت كثيراً.. بدأت أعتقد أنكم تهملون الأمور، أنتم السبب فيما يحدث.

- اسكت يا حمار.

.. ..

.. يتدفق أحدهم بسخرية لازعة، البيوت آيلة للسقوط، وهو يناجي أرضه المستباحة والأجساد المنهكة.. يعصر جسد الغيم، يستحضر النعناع، الذي يفشي له كامل الأسرار.

.. يقف الشوق المتدثر بكل الأساطير عبر الشارع.

.. نظراته الصارمة تبتسم في وجه "عوليسه" وهي تطبع مدينتها راسمة إياها على جلد ثور آبق، والورد المقهور أطفال رائلون يتفرسون وجوه المماليك، بايات تونس، وظلم ذوي القربى، كلما نادى المنادي، أو ولد الليل الكلام.

- في زمن النهب المؤذبح، وشرعة اللصوصية هل الوطن فكرة في الذهن أم هو مكان على الأرض فماذا نقول لوطن يهينك بنية صادقة مؤكداً أنه يحتضن بك؟.

- لا أريد الماضي، أريد المستقبل فأنا أرى ضوءاً عن بعد، لا بد أن أذهب إليه.

.. ..

الأشياء تخرج على قوائنها، تلهو بالنظر إلى النجوم.. أسئلة شيطانية تقتل شواربها، والأرق يقارع الانتظار. يحاول أن يكرر محاولاته، فتصدده ذاكرة خصبة ..، الليلك يتأبط النفوس، والشوارع.

يلثم انتشار الضوء، وهي تطل بين الأصابع النارية.. تستقرئ الجراح، وترسم اشتياقها على شارع رصيفاه جوع وعوز.. ينتج الخصب في الليالي الملاح، عندما تعوي طواحين الهواء..

..تلاحقه الهواجس.. يفتح بوابات الطبيعة.. يضعها في قمم قلبه، والمواسم حالمة، بالفراشات الملونة، وسنابل القمح تثبتل في عيون البسطاء من الناس.. أرض السكينة فيها ساجدة، مفعمة بحب الله.

...

..على إصبعيه يلف أحزمة الضوء..ويبتسم للعشاق، تطلق الشوارع زمهريها، وصهدها، في البيت زلازل من الجوع، تحاصر بكاراة التدفق، وعلى سواحل الروح انفجار للأحلام الندية، وهو يبحث عن نبض الأرض، في نبضه الممزوج، بهول الفزع من نار الجنون، يعطرها رحيق الدم الساخن، ثم يشخص إلى الأمام.
تتلوى الطريق، وهي تسير في طريقها، بعد أن ضاعت من قدميه، وهو يقف على حافة جرح هار من القرف. يفكر كيف يجب أن تكون الولادة صحيحة، لقد أطلقوا زيفهم فغاب صدقهم، ولم يتبقى لهم في نفوس الناس أي أثر.

...

تصطدم الرياح ببعضها البعض.. تصطك أسنانها، فتترك لنفسها الصمت كلما انسكبت الدموع من عينيه التي جرحها الألم.. ثرثرة يجد فيها ملاذًا للهروب، فيطلق بالونات الروح، ويقبب الجسد.

...

يفتح دقاتر الوقت بعد أن يصبح وجدانه، مأوى للسعير.. الجميع يمرون في طريقهم إلى يومهم.. هناك من يتخندق مع الماء بين أمواجه، وهناك من يخاصر العشق المباح في ليالي السهر، وآخرون يرفضون في ثياب الجوع والعطش.

.. ينظر أمامه، يكتب حكايات الجموع الجائعة، وما تقله، ولا تقله جراح هذه الجموع، وعذاباتها، وهم يحملون نرف وجدانهم، فيقرأ شيئًا من رسائل التاريخ.

- الجبال لا تستسلم للرياح العاتية، وستبقى شامخة أبدًا.
- وانشمس تلسع الوجوه بأشطانها الكاوية فتعطي الرجولة بلسمها.
- هكذا تكون الأرواح وهي تلتف بأحلامها المبتغاة.
- .. تنهض أرغفة الخيز..

عيون كليلة تتحرك في محاجرها..

يدب في أوصاله الخدر ، يتشرنق السؤدد في القلب ، وعلى الألحاذ
الطرق القصيرة طويلة.. طويلة..

الوجوه تحدق في الوجوه ،. الأجساد الممتدة تفرق في القيام ،. أقدام
حافية تصفع التراب فلا يعكس صفوها وجع ،. تحدق في قسماته
الريح ، وهي تصفر مبهمة ،. فيتحول صغيرها إلى حروف عزلاء ،
"الأعوان" يفضنون ما يعتمل في العقول والقلوب بوحشية مباغته ،
ينظر بقلبه ، فيتمزق كل يوم ألف مرة ، ورغم هذا يحتضن الضوء
الشمسي الطافح بالكثير من الأحلام الصادرة.

...

نقوش مستطيلة الشكل..تقف على استعداد كامل في الوقت
المناسب ، يختلط وجعه بأصوات المشردين ، العمال ، والأعوان وهم
يلاحقون راغبي الهجرة غير الشرعية ، ثم يترصدون الصبايا الفاتحات ،
والأراضى التي تركوها خلفهم ، لضيق ذات اليد وعدم إمكانية
تعميرها.

...

تحضره أمه..تتقدم منه..ها هي تتقدم..لقد شاهدته..وهو يتسلق
جدران البنايات الممتدة على طول الشارع.
يلتقط غسيل الملابس ،ويبيعه بقروش قليلة ، يستبدلها بلفافات
رديئة تضم أمه وبعض هواجسه.

.. هكذا كان صاحبه يتدبر أمره..لقد اضطرته الظروف القاسية
لذلك..

كان يعتقد أن حصوله على إجازته العلمية سيمهد له الطريق..
ولكنه لم يحظ كغيره بما حلم به..ازداد الشد والجذب بينه وبين
القائمين على الأمر ، يومها كان الضرب قاسياً..

لقد ذكره ذلك بما حدث معه ومازال يحدث مع من هم على شاكلته
ومن هم ليسوا على شاكلته أيضاً.يومها ظل الألم يخنقني..تحسست
رأسي ، فالتصق الدم على كف يدي ، بعدها سحبتني الماء البارد من

الغياب..

.. ..

الظلام يسبح على وجه المنطقة.. وطابور المحتجزين كل يحمل بطاقة هويته، يقضون الدهشة هم لا يعرفون لماذا هم هنا.. لسعات الكهرباء كما هي دائما، لقد وصلت مؤخراتهم قبل أن تصل بيوتهم.. إنها عناقيهم اليومي، كما هو الحال مع شوي الأطراف، واقتلاع الأظافر، حتى الأماكن الحساسة لم تسلم، لقد كانت نشوة الوحوش البشرية، متميزة تماما.

- يجب أن نثبت وجودنا دائما في كل الأحوال، وللجميع.
- أنتم بذلك تسيئون لسمعة الوطن.
- نحن نحب وطننا، . تخلص له ولكن من حقنا الحياة.

.. ..

سرح بفكرة هنيئة، . وغاب في الماضي ما هذا الذي يحدث، وماذا يسمع؟!

لا بد من إرادة صلبة، وبشты الطرق، لامتلاك شروط الراحة والمستقبل .. خفق قلبه لما يفكر فيه، شاهد الشرطي ما يحتمل في عقله.. تقدم منه محذرا ثم دعاه للابتعاد

- ولكن عن ماذا نبتعد..؟!
- عن هذا المكان.
- نحن هنا للمراجعة، ولم نلتق جوابا حتى الآن فإنى أين نذهب؟! سننتظر.

- إلى أي مكان.. انصرفوا.. لا أريد أن أرى وجوهكم مرة ثانية، وإلا سيكون مكانكم هناك.

.. كانت إشارته إلى السجن مهورة بلكمة قوية كادت أن تسقط فكه..

شيخ جاوز السبعين يلاصقه طفل في الخامسة عشر يسقطان من أثر الضرب المبرح، كل منهما جواد جامع يليه سوط الحوذني..

.. أحدق في وجهيهما ..

أحاول أن أعضّ عنقه الغليظ.. أقضم أنفه، يؤلمني أنني لا أستطيع..
ينظر إلي، يجلدني بسياط عينيه، ترتفع مطبات نفسي المتذبذبة،
فانكمش في مكاني. تقذفني عاصفة الألم من عتبة إلى عتبة..
فأصمت ..

...

.. الشوارع تطفئ على صمتها.. والعممة تطفئ على الشوارع، فرح
ثقيل لم يتحملة قلبه أكثر من ذلك، ألمه في فرحه، وبهجته في ألمه..
ترتسم الأحداث على قسماته، كاجلاد المسجى على نعش الضحية،
توتر صامت يجتاحه من جديد، بعد أن أعتقد أنه انتهى، لكن الأمل
سينبعث مرة أخرى من تحت الرماد كحلم، أو كجثة قمح دفنت تحت
الصقيع، لتحمل أحلام الربيع في غد قادم. أحلام صغيرة، تبحث في
الزمان، يحضر التاريخ مملوءاً بالدخان بعد أن حزم حقايبه بالحزن
والضياء..

- لي هنا بعض المصالح، لا أريد أن أُغيبها، لأن حاجتي لها ماسة
كما أنها حق ثابت لي.

- وهل سيتنازلون لك عن شيء كهذا؟

- أجل، ولكنه ليس باختيارهم بل غصباً عن إرادتهم.

...

.. يقف على جدار الأفق.. أبعد من امرأة يقف، وهي أمامه صباح
مساء، يتغشاه الوهج، يفيض الهوى متبوتاً صدر المكان.. يصبح أكثر
حيوية وخصوبة، فيظل مجنونها الأخير، وتظل بالنسبة إليه كالشمس
الدافئة، والنور الذي به يرى. فهو يعرف جيداً أن آلام الجسد زائلة،
فقط يبقى لظى الروح مشرقاً.

...

.. تطلق الشمس أشعتها الذهبية تقبل حزنها الصامت، فروحها
توحي بالوصول إلى فرحة أبدية، جعلت السماء تضح بحبها، تبعد

عن الأكتاف المكتسية بمعاطفها الثقيلة والريح حارس يشق هزيع الليل، يعانق النجوم التي تتمنى أن يصبح الحلم حقيقة، وتشد هواها في جنون الزحام.. يخرج فجأة، يعصر حبات قلبه أمامها ليؤكد مدى حبه لأسرته الطيبة.

- نحن لا نخشى شيئاً ما دمت معنا يا بني، أنت سند هذا البيت ندعو الله أن يبقيك لنا سليماً معافى.

- أنا معكم وبكم.. لنفرح معاً الآن، ولنترك حديث المشاعر إلى وقت آخر..

...

..أناس بسطاء، يلتقطون نشرات الأخبار، يوقظ عينيه ببعض فضول.. أفكار متداخلة، قضايا متباينة، وهو لا يزال سائراً في الطريق..
ها هو يسير، إنه لا يلوي على شيء.. ينزلق بعينيه الحادثتين إلى كل ما حوله، يغوص بهما في أعماق الأعماق..

تقدمت منه أشحت بوجهي عنه، فقد كانت خيالاته في نظري، حقائق ماضية تتجسد أمامه، وهو يتقياً ربع قرن من أيام اللهاث... هي سنوات عمره التي تكاد تصيبه في كل مرة بالاختناق.

...

.. يتسلل إلى أفقها، وهو لا يعلم بالمفاجأة القادمة التي تطرق الباب، إذ من الممكن أن تبدأ صفحة جديدة معها.. وحياة جديدة..

...

لم تكن «الملاسية».. سوى نجمة مطفأة في مدينة امتد وجمعها ليغطي كامل دوائر الأفق.. إنها خاصرة قرطاج.. حاضرة الوطن التي أحبها وأحبته، وظل يحلم ولها، وهي تحرق في مقهى الزفاف، الذي يحكى عبر دورانه، قصة الحلم، الوجد، والحرية كعناوين أولى للفتح، وكشف دفاتر الماضي، والحاضر، مؤكداً أن حالها لا يختلف عن حال، النجيل الأحمر، المليء بالمهمشين من الناس، الذين يأكلون اللطى، وهم يقبضون على الجمر، وينامون في قلب الأسرار، ثم يعلمون..

...

يستحوذ العذاب على تفاصيل اليوم الصامت.. ينطلق وجعه من وجعه.. يبدأ في رشف حليب التفكير، حتى لا يفوت الوقت على الحقيقة التي بدت ساطعة كضوء الشمس.. يهجم عليه العلم المدجج بأصابع الحمى.

يصدق في داخل الداخل، حي «الملاسين» رمز للفقر والبساطة، أهله يضمون أحلامهم، وأحزانهم في شوارعهم المتربة، لا يرجون أملاً سوى من الله، بعد أن فقدوا أملهم في المتفذين من الناس، رغم أنهم لم يقترفوا ذنباً يعاقبوا عليه، سوى أنهم فقراء.. يدندن مكرراً ما نصحه به الطين.

لا بد من الصبر، والحكمة في أن يصمت الإنسان في كثير من الأحيان، فها هم أهل الحي يدقون الوقت بأحلامهم البسيطة، وأظافرهم في رحلة البحث عن بعض من الهواء الطلق، الخبز اليابس، وبقايا أطعمة يفتشون عنها، فلا يجدونها بالكاد..

يتقدم إلى الأمام.. يدق بندول عقله.. يضع أيامه السابقة أمامه.. ها

هو يقدم أوراقه المحشوة بالصمت والانتظار، رغم أنه يؤمن أن كل تعاسته من الواقع، وليس من مخيلته، ربما يستطيع العقل أن يجعل الجنة جحيمًا والعكس، فلا شيء يجلب للشخص طمأنينته سوى نفسه.

ولكن هل يحدث ذلك رغم كل الخيبات السابقة؟

وإن حدث، متى وكيف سيكون..؟

يشرح لذاته التي تحاوره بعضًا مما حدث، إنها المرة المائة التي يخذله فيها الناس.. وبالذات هؤلاء القائمون على أمر البلاد والعباد، الذين أكدوا له مدى قذارة السياسة، وقدرتها على تغيير طبائع الرجال، لقد عذبوني كثيرًا..

كم حرقت السجائر جسدي، وكم ضرب رأسي بالحائط.

ناهيك عن الشتائم البذيئة، فهذه حدث ولا حرج.. ليس هناك قانون لأشتكي.. لا أستطيع أن أقاوم، أو أن أفعل شيئًا. علاجي الوحيد هو السكوت.. جسمي به كل الألوان وبصمات الإهانات المختلفة. فإلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يصمد..؟

.. يبدأ التفكير بالذهاب إلى هناك.. حديث الألوان، همس للذات يكتب نفسه مرة أخرى، يلفه تفوق إنعتاق الدموع، والعبارات.
- لقد ظلوا يضحكون في وجهي لكنهم يهزأون مني عندما أدير ظهري.

- وهل لك عيون في ظهرك لتقول ما تقول؟

- لقد اتصل بي أحد الأعوان أكثر من مرة يطلب بعض المال لينهي كل شيء.. لقد كان إحساسي في محله.
- ليس كلهم كذلك. فأصابع يدك ليست واحدة.
- أجل، هذا صحيح إنه الواقع الذي قد يرضى البعض لكنه لا يجبر الناس على مراعاة الناس.

..

.. عيون اعتادت أن ترى.. وكأنها لا ترى تحديق عن قرب ورجل يبحث

عن المطلقات ، وأحيانا يفكر في أمور الدنيا وقضايا باتت باهتة ، لا يخشى شيئاً فقط يحاول أن يثأر للماضي ، الذي جرحه كثيراً ، بعد أن كثرت الرطانات ، وأصبح الباطل أكثر قوة لأن معه الميديا والمال ، كذلك يفرق مع أناسه في كؤوسه المتتابعة التي يدلقها في جوفه كأنه يصفع كل الذين عاقروا جرحه وتأزمه ، حيث باتت البطولة جنوناً يتمثل في الصبر ، والعض على الجراح.

- ماذا بك يا هذا؟

- أنا أبحث في كأسسي عن كسرة خبز نظيفة. انظر إليها ، هناك الكثيرون ممن هم أمثالنا رغم وجعهم يضحكون سخرية وأحياناً يبتسمون.

- لم يعد هذا الوطن لنا جميعا ورغم أنني أحبه ، قد تكون الهجرة إلى الشاطئ الآخر باباً ينقذني مما أنا فيه.

- ألا تنتظر بعض الوقت؟

- لا فائدة فلقد مل مني الانتظار ، لهذا قررت وهممت بالرحيل.

.. ..

..إنه يرى نفسه في بؤى عينيه. فما بينهما من علاقة لا يجب أن تنتهي هي ليست علاقة عابرة ولا من نوع تلك العلاقات المغامرة التي تغيب بسرعة إنها بلدة أرضه التي أحبها ، كما لم يحب عاشق معشوقته.. لا بد من ذلك..

ليس له إلا هم "تونس" و"تومية" وأسرته..، ولأنه قريب منهم ، وغريب عنهم وفي نفس الوقت بعيد عن تحقيق ما يصبو إليه ، رغم أنهم في قلبه وكل مساماته ، فكر في الهروب خلف البحر ، صوب الشاطئ الآخر..

هناك المال ، والحلم ، وبعض من الحب الرخيص.

وهو بحاجة إلى تحقيق حلم والدته بامراة ، تصهل فيه ، وتذيب شقاوتها ، وسكر شفيتها على شفثيه.. لا بد من ذلك ولا داعي للقلق من قرار كهذا ، المهم حسم الأمر ، وعدم التريث.. هكذا أفتع نفسه ،

حيث صار يسمع صوت الحياة، ويكتشف معنى جديداً لها، هذه هي السعادة الحقيقية، سعادة من لا يملك إلا كرامته وكبريائه..

...

في البداية ظل يراها في منامه..
كان صامتاً، ومحايداً، وبالتدريج صار يتحرج من عمله، كلما أطلبت عليه الأوامر، وضيق الحال، بحيث أصبح عمله الهامشي هذا كعمل صبي تراحيل، حصاراً له، جعله كجماد ثابت، ظل يلازمه كجزء لا يتجزأ من حياته.

...

.. في الخلف..

الضباب ومداخن «سيدي بوزيد»، ترسل الدخان نحيباً دافقاً في الفضاء، يسير عبر الطريق الشجري المظلم، ينحدر ضوء المساء خلال الأغصان.. تفيض عيناها ببريق لازردي أخضر، نسמתها الوردية، كما نهار مقبل ساعة الفجر.. عالياً يزار، كان تفكيره فيها يشعل كل أيامه، وهو يتلهف على الوطن.. زفراته صامته، ساكنة، وذاكرته. رعشة الاستجابة القوية.. السماء تغطيها بهجة زرقاء.. يود أن يحصد أيامه فرحاً، تعانق الصلوات شفته، تطوقه الجدران السمكية، والطريق يمتد أمامه طويل.. طويل.. الهوى ضوء وأسى.. ولا أحد يمد يديه مهوئاً، فكثير من هم مثله.. فمن يواسي من..؟

تباغته العواصف.. تهرب منه أجمل الأيام.. وهي تفتش في قلبه عن أثر من الماضي.. فوقه تومض نجوم السماء.. تلهو وتظنر مصغية وهو يصلي.. النجم غارق في الحلم، والطبيعة مرة أخرى تصغي إلى الله..
- لماذا لا تعانقنا الحياة الناعمة ولا تتفحنا ببعض نسמתها.. أحس دفتها، وأنفاسها العطرة، دون أن أستطع لمسها، هل هو الحظ أم ماذا..؟

- نحن هنا كي نشارك في عمل هو كيف نقطف المستقبل..؟
.. يعود إلى البيت..

يستلقي ليأخذ قسطاً من الراحة ، يرشف الشاي الذي استخدمته والدته للمرة العاشرة ، مع صديقه الذي يدعوه الأمل للذهاب معه.. يسيران في الطريق الترابي.. الأزقة المظلمة ، البيوت الرطبة تحدد في حيطانها المتهاككة ، يدق الصديق الباب ، ثم يتراجع قليلاً ، يقف بجوار صديقه.. يخرج "سي الحبيب" إنه وسيط المهرب ، هذا عمله الذي يتحصل منه على بعض الفتات ، يشير بيده ، ثم يذهبون جميعاً إلى الشخص المقصود...

.. ..

يجلس ثلاثتهم في "المربوعة" التي يتوسطها كانون ، يعتليه براد الشاي الذي يسكب منه بين الفينة والفينة في أكوابهم التي يرشفونها بتلذذ..

يتفرسه بعد أن يلاحظ ما على وجهه من امتعاض وحيرة.. يرسم التوجس علاماته الفارقة على الوجوه.. يتلع ريقه.. بعد أن تصله شارة الشفاء.

- هذا الضيف ، أمين ، جاهز ، وكتم المهم السرعة في التنفيذ.
- أهلاً وسهلاً ، سأحاول أن أساعده رغم أن الظروف صعبة فكما تعلم هناك الكثير من الشباب الذين يريدون الخروج ، بحثاً عن المستقبل!

- وماذا في ذلك ، أليس هذا حق لهم..؟

.. ..

.. يا له من صديق طيب..

هذا الرجل البسيط ، الذي يصحو وينام على حلم رومانسي أبيض يعرف أنه صعب التحقيق ، لكنه سيعاوم ، تأخذه أحلامه إلى أماكن بعيدة ، تشده من تلايبه مرة ، وأخرى ترفعه على بساط الريح ، وتدور به إلى مختلف الأماكن والمدن.. يسكب الشاي من جديد ، ينظر في عيني صديقه هامساً.

هل تثق في صديقك هذا ، لقد كثر النصب والاحتيال ، وكثرت

تبعاً لذلك، المشاكل، وحالات الاختلاس. لهذا الانتباه واجب.
- أرجو أن يكون صديقك غير أولئك ممن نسمع عنهم. فما سأدفعه،
مبلغ استدنته كي أصل إلى "لمبادوزا".

يذهب بخياله إلى البعيد، هناك خلف البحر، الطعام التنظيف
العمل، والكهرباء التي تسطع على البيوت والنفوس دون انقطاع..
تتعانق الابتسامات مع الوجوه المستنفرة يذهب إلى بداية الفرح الذي
عانقه. للمرة الأولى اليتيمة في حياته، فلقد تحصل على إجازة النجاح
على أساس أنها ستكون بداية لمستقبل ظليل مفترض، يجمع كل
ألوان الطيف في بيتهم الصغير تمتد اللحظات أبواباً واسعة، أمام
ناظري.. وعلى قارعة اللهفة. أقف وأنتظر.

- إذا كنت تحب التفاح هل يجب أن يحبك التفاح أيضاً وبتفوس
القدر..!؟

- من الممكن شراء كل شيء بالمال، لكن هل من الممكن شراء
الأصدقاء أو السعادة بذلك. اعتقد أن هذا غير ممكن!!
- ماذا بك. المال يحل كل المشاكل. حتى النفوس.. كل الرجال
يضعفون أمامه.

- إلا الشرفاء، والشرفاء وحدهم.

- الجميع يتحدث عن المواطنة. والإخلاص للوطن، وكأن ليس لنا
علاقة به، وهم فقط أصحابه.

أتذكر كيف تقشر جلدي. وإلى أي مدى لثمت الكرابيج المملحة
جسده الغض فأمد يدي لأجد نفسي محاطاً بيوم صامت.. تطلقه عيون
صامتة، وقسمات حادة،

- أنت ضد الطمأنينة في هذا البلد.

- أنا ابن هذا الوطن.

- إذن لماذا هذه اللهفة التي أنت فيها..!؟

- يا أخي لكل إنسان خصوصياته وظروفه.

...

..لقد تأكد بأن الإنسان ليس أكثر من قيمة..

لكن لا قيمة هنا إلا ، للدجل ، المداهنة ، والمحال ، وأمور كثيرة غريبة.. خيوط الدخان تلملم أردانها تبادرني بابتسامها المعهودة.. تتثائب الأيام ، ها هو يعتصم داخل إهابه. يود أن يقطف بعض حلم وسعادة.. لم يستطع خطف وردة ساطعة كالضوء.. وعندما احترم القيظ رشف الماء المالح رذاذ وجهه فضاع ذباب الكلام..

.. ..

لحظات قصيرة.. يقف خلف شباكها.. يعود أدراجه ثم يراقب الشباك.. المكان يطلق ابتسامة غريبة ، عريضة ، لكنها هادئة.. يتجه إلى والدته ، يبحث عنها وسط الدار ، يسمع أصوات حركتها في المطبخ.. بيتسم ثم يذهب تجاهها .

- أهلا يا بني يسعدني رؤيتك من جديد ، إجلس كي تأكل طعامك معنا. إخوانك بانتظارك.

- لقد أحضرت لكم المال ، والهدايا الكثيرة.

.. ..

بيتسم.. يواصل..

يؤكد لوالدته أنه سيشتري بيتاً جميلاً.. وسيحقق لها رغبتها بأداء فريضة الحج للبيت العتيق. ثم يتزوج.. أليس هذا ما تريده؟

يعود إلى ذاكرته الطفولية.. التي تعود به إلى البيت ثم تسحبه إلى خزانة الملابس ، يخرج لعبته القديمة التي ظلت والدته تحتفظ له بها على أمل أن تهديها لأول طفل ينجبه ، قطرات العرق تغطي وجهه المتعب ، عيناه تحمقان ، وتذهبان في كل اتجاه في ظلمة الغرفة ، ، صورة والده خارج الخزانة ، ، تصرخ مزلزلة المكان.. تدعوه للانتباه.. ينظر إلى أعلى ، تحديق في وجهه بقعة ضوء:

- الصدق لن يثينا عما نريد ، المهم التنفيذ ، حتى لا تبقى حالة الحزن الطويلة إلى الأبد.

- سأفكر في الموضوع وإذا قررت سنحاول معاً ، ونرجو أن يكون

كل شيء على ما يرام.

.. ..

تقدمت منه، امتدت إليه قدمت له فروض الاحترام، وحينما عثرت أشعتها الساطعة عليه أحرقته، لكنه استغرق في النوم تمامًا.. سيدات فانتات مطوقات بالورد، رجل يرقد عند جذع حائط كان يعرفه في الماضي. يحمل على كتفيه أحلامًا حزينة نرف القلب رأس محموم بجمرة لا تنطفئ لهب العروق يحترق، جيوب فارغة، وكذلك الأمعاء، والأم الشقية كتلة بشرية تعاني بصمت، صبايا حكم عليهن القدر بالبقاء بين جدران البيت المتهاككة. يحاول أن يفعل شيئًا، ثم يحاول مرة أخرى لكنه لا يستطيع أن يطرد الأفكار السوداء الدخيلة فماذا عساه أن يفعل؟

.. ..

"تومية" نجمة على شكل امرأة تسير في رشاقة النجمة.. بيضاء الجناح شعرها الذهبي مجدول بشرائط الفرح. امرأة ذات عيون فاطمية، عارية الرأس، مجدولة الضفائر.. تأمر عليها الصقيع.. والثلج الذائب يرسل لها نظرات من فقد الأمل.. شفاتها الشهية تشكل لكمات خرساء.. لا تزال قبالتها الملونة، تشتعل مثل لهيب متوهج على خده، وجبهته، وعند الأبواب والشبابيك، زوجات الجيران ينظرون إليه باحتقار.

- ما هو مقدر أن يكون سيكون لا بد من ذلك.

- لن أخبرك، لماذا دخلت، ولماذا قررت، فللرب وحده سوف أبوح بالسر.

- أنا لست غاضبًا منك، غضبي من نفسي فقط، لا أستطيع العودة إلى الخلف، هذه هي الحقيقة، لكن ربما نلتقي مرة أخرى، من يعرف..؟

.. ..

رجل يعرش على كلماته الياسمين.. عشقته العيون والقلوب، يلف همومه في ذوائب النجم مرة، وفتائل الشعر مرات.. يعشق حرية الحروف، يجول الأمكنة دون خرائط، إنه يعرف وطنه جيدًا، لذلك يرسم كلماته ألعابًا، وموجات فرح، يستفتي قلبه دائمًا، يطرح

الكثير من الأسئلة دون أن يجد لها إجابة خاصة ، ويعرف أن الفرق بين العقل والقلب ، كالفرق بين الماء والنسراب في صحراء واسعة.. يقف بين ذاته وذاته ، تحمله همساته إلى المكان المظلم.

- الحرية المفتوحة في الكثير من الأحيان تنتج الفوضى.

- لقد تأخرنا كثيراً. وهذا تراجع غير صحي

- لا تراجع. أنتم فقط من يعتقد ذلك. فكل شيء هنا إلى الأمام.

...

.. يصمت.. يبلع ريقه.. يعضه حلم الحرية.

فهو يعرف أن نكل إنسان طاقته ، وكل شيء له حدود ، حتى الظلم ، ولكن يحتاج الأمر إلى من يدق الجرس ، ويقرع الخزان ، فهل الجوع هو الذي يدفع إلى ذلك أم الشعب أم هي الحرية الغائبة ، خاصة وأن العديد ممن يدعون حب الوطن يتراجعون بسرعة ، وكأن ليس عندهم إحساس بالمسئولية.

- لقد بحث بكل شيء ، ولم يعد عندي ذرة من الأسرار ، أهم شيء أن تقول لا للظلم.

- أنا أكره الرجل الذي يتلقى الأوامر ويطبقها. لأن معنى ذلك ، أن رجولته مقصوفة.

...

يسير بخفة وسرعة متناهية ، صوب منطقة في طرف المدينة المهملة.. الشمس ساطعة ، الطقس حار ، تسيل قطرات العرق من على جبينه المجمر ، جراء مجهوده الكبير ، حمامة بيضاء تحلق عن بعد يشعر بالتعب. فيجلس على صخرة نائمة لالتقاط بعض الراحة.

.. تلسعه حرارة الشمس...

يجتاحه الأرق ، يرفع رأسه عاليًا ، ثم يبدأ بمسح العرق بكف يده ، ينظر إلى أعلى. يرى الحمامة البيضاء في الهواء قريبًا منه ، فيبتسم.

.. يلتقط شنطته الصغيرة..

جموع من الرجال أعمارهم متباينة يتجهون صوب المكان المعد..

يتزاحمون.. يتدافعون، بدا على محياه، وكأنه خائف من الفشل فصار كمن فقد أمله وخاب ظنه، ، يتجه إلى صديقه، يشير إليه بالصمت وعدم الحديث، ويشعره بأن كل شيء على ما يرام.. الأزدحام يضغط بكلكله على المكان.. يُطلق إشارة سريعة تحذر الجموع من التقدم.. وهم يقبضون على أنفسهم ثم يحتجون بعض الشيء..

- لقد ابتعدنا عن الجسد، لتفتح الطريق للدخول إلى مملكة الرب للقادمين الجدد.

- سنترك عالمًا. لسنا بحاجة إليه ونذهب إلى عالم جديد.. جديد، عالم ما بعد الموت.

- لي أسبابي الخاصة، وهذا كل ما في الأمر.

- لقد نشأت دون أب، وأنا أعرف معنى الحياة وحييدًا، لذا سأعتبرك أب لي. فكل تفاصيل حياتي، وعائلتي بيدك وحدك.

- سأعمل كل جهدي لإيصالكم إلى ما تريدون..، وحيث تريدون.. يتأكد أكثر أن كل الناس متشابهون. الكثير منهم من الفاسدين، وكثير منهم من يقدمون طاقة روحية للكون، أما أصحاب السلطة ممن يجري في عروقهم الدم الأزرق. فليس من مصلحتهم الغاء الحواجز، والشوائب بين الناس، إنه يعرف ذلك جيدًا، ويعرف أن جملة من الطقوس الملوثة هي أصل لكل الأشياء.

...

..لقد طال الانتظار..

الأيام والشهور تتقدم.. ها هي تؤكد أن الوقت قد أزف، وغيوم صافية خجولة، تحاول أن توقف ركض الموج عن وجه القمر، ، ينتظر الصيف التونسي اندافئ. يحاول مرة أخرى مع الضوء، يفتح عينيه مع الفجر القادم، بعد أن يخلع الكون ثوب ظلامه.. الشمس تتقدم دورتها.. وجوه مكفهرة تحرق في الماء العميق بوجوم بالغ.. يؤكد صمتها أنها أقوى من كل تعبير، الكل يبحث عن لقمة شريفة. افتقدها في وطنه، لقد هربوا من جحيم الأرض التي ولد فيها، ليذهبوا إلى جحيم الماء.

بهدف الوصول إلى الأرض التي تفتقر إلى صفارات الإنذار، ولا يخاف فيها الإنسان التعبير عن وجهه. وهو أجسه..

.. ..

.. يقضم قطعة من الرغيف الجاف الذي حمله معه.

غمرة الحسرة، وهو يتذكر كيف زودته أمه بهذا الطعام البسيط،

وهي تداعبه برقة المعتذر، هذا ما لدينا يا أمي.

تأوه ألمًا مكتومًا.

يختصر المسافة بين القلب والأرض عبر شريط يربط البداية

بالنهاية، القلب يحترق ورذاذ المال المالح أفسى من حرارة الشمس

التي تلسع الجميع.

.. ينظر فيما حوله..

البحر مشتعل بالأسماك والوجع.. والزورق يحمل الشوق والفقراء،

يرفع المهرب شوارع قاربه الصغير، ليكتب قصته بحارة، "قرقته"،

وهم يندفعون تجاه "الشرفيه" ويتسمون لصيد البحر الهزيل الذي

يأملون بتوديعه..

.. ..

.. حشاشات عطشى..

أمعاء خاوية وشفاة جافة وغليلة تحاول انتزاع الصمت والرطوبة من

صمتها وتزويد ذاتها ببضع بلل، تنسرح الدقائق، وهي تفرق في خوفها،

والأزرق المخيف لا يستثني أحداً.

.. سنة من النوم اجتاحني تذهب عني فجأة..

شيء ما بداخلي يتحرك لمعرفة ما يجري، العين والضوؤاد رغم

انكسارهما يطاولان أعنان السماء، ، تقفز الأبواب والشبابيك تصب

العين في العين لهفتها والزورق ينزلق بحذر على صفحات الماء الأزرق،

الذي يطرق الوجوه برشقاته المتتالية. هي هجرة الفضاء البعيد، إلى

الخيز، وإلى الكرامة حيث يعتقد، الكرامة التي عصرته عصراً

عندما حمل تشرده وأصالته، وذكري الأحذية الثقيلة، وهي تعانق

الصدور، وترسم على الجلد قروحاً ناتئة، عضته حتى النخاع..
..انساح شريط ذاكرته..

بصق على وجه اللحظات، وهو يتذكر كيف زحفت القبور على
الدور، وكيف استبدل الدم الأحمر دمه بالخبز الجاف، لقد كان
بجواربي عندما حرق في وجهي، لقد كان شرطياً فقط، عرفت إنه لم
يقراً ما يجول بخاطري رغم أنه يحاول اقتناصة، بلعت ريقى، وكلما
ارتطم خدي بكفه الغليظة، انحسر الضوء عن وجهي كان لا بد من
الضمود، إنه صراع الأمنيات والبقاء، المفعم بالأمنيات والبقاء والذي لا
بد منه.. ينسحب الشرطي فجأة يمسح بعينيه جدران المكان.. تحجرت
العينان.. الكلاب البوليسية ترسل هدير إنذاراتها، ثم تصمت، لكن
لا أحد يعرف ما به من وجع.. يطفئ مذياع ذهنه، عيون تتسع بحجم
الكون، تتسدل على كامل الجسد، يلجم خيول وجعه. في البحر
متسع للجميع.. تستطيع الهرب، أو الموت إن شئت، لك الخيار، فلا
أحد يؤلمك، ولا أحد يعلم عنك شيئاً، لكن ألوانك تبقى هي ألوانك.
كما الماء الأزرق، وهو يختلط برذاذ الكلام.

- وهؤلاء الذي ينتظرون. ماذا لهم؟!

- الجراح سجينه وماء البحر طليق حريتهم فيما بعد الماء.

- وهل نصل..؟!

- لا بد من الوصول.

...

يتوه في عوالم بعيدة تعربد في مخيلته جملة من الأفكار المتموجة
ترتفع أنفاسها ساخنة ملتبهة.. يتوغل معها في قاع الوقت يحاول أن يهز
أركان العذاب الذي ينطلق كلاماً بحجم الكراهية. يقف في شوارع
البوسعيد، تطلق الكأس الأخيرة لسان حبه كلما فكر كيف
ستحتويه المدن التي تمر كأنطفاء السيل بعد أن طفح اللحم البشري
على الماء...، يمد يده إلى صدرها النافر، يلتقط من لون الرماد كحل
عينيها، يفرك أنفاس الكري، وهي تحاول أن تحمل حقايب موتها

فتسائل عقارب الساعة.

- أيتها المرأة التي تضعني في بؤبؤ عينها كلما غطست في كؤوس فرحي، قدمي لي أوراقك الملونة.
- سأظل لك، مهما عاندتنا الظروف.
- حاولي أن تشربيتي.. فأنا نسغك، وفرحتك الأولى.
- وأنا كذلك.

...

يحاور الأمكنة...، يفرح للأوراق التي أحرقت الموت ذات مرة ينتمي لقافلة البوح، ويحمل موجها على كتفيه، بعد أن يتأكد بأن هناك مواقف أوليه للعيان، بأيديهم المناديل الملونة، وعلى ألسنتهم دعاوي الرفاه، وطول العمر.. يحضر "الدغباجي" فتطلق ثرثرة صامتة.

- التاريخ حياة مسكونة بفريال يحكي قصته اناس والعالم.

- لا يجدي الصمت، لا يجب أن تظل تحزن من حقلك قطف بعض الفرح.

...

يشعر بأن قدمه تقتلع من قاع الزورق يطفو حلمه على الريح، والماء عندما يحضر طيف أمه الذي يحلق فوق جهات الأمكنة...، يتذكر كيف ظل يسبح في دمه المتخثر الناظف من القلب والخاصرة.. يصدمك المشهد عند كل منعطف، وأنت لا تستطيع البقاء صامتاً إلى ما لا نهاية. يحاول أن ينتصر على جراحه.. ويحلم بعالم يود أن يقتلعه من جذوره، وهو مصمم على الذهاب في طريق الحرية، حتى النهاية.

...

الوقت المرقوم باحتقان المسافات وحزن أيامها، يحدد للجميع أعمالهم: تصيبه رعشته الخوف عندما يرى المتنفذ يتهاى لابتلاع فريسته، فيهرب من عينيه النجم الطفولي، وتطفأ البسمة من على وجه القمر يملكه شعور بالضيق والرجفة.

يالها هذه الذئاب البشرية من عطش الأيام.. يالها الفتران، والجرذان،

إنهم يحرقون الأرض في أكبادنا.. لكننا لن نراجع..

.. ..

يقف الماء على سطح هواه تحتضن المسافات مسافاتهما ، والبحر
عيون تحديق في وجع الزمن الجامح ، موجة طاغية تنثر رشاقتها على
الوجوه انكليلة التي تتطلع حالمة بشمس قادمة ، تتمازج خيوط الضوء
مع خيوط الماء ، ورذاذ الوقت يستحوذ على الأنفاس. يأخذك الفيض
إلى فائض أكسيد الوجع تلفك ترائيل تغلخ قميص عثمان ، تجعلك
تقف على حافة الدوار ، يشعل نار هواه.. وهو يرى الأرض يستطيل في
خاصرتها جنون الموت ، العيون تجرح العيون. ثم تخرج منها.. وهو فائض
خارج عن الطاعة.

ينظر من زورقه فيرى كيف يغوص الطريق الترابي في الماء يحاول
أن يقبض على تفاصيل القمر يستدل بنوره في الطريق الطويل ، عبر
منافي الروح يسير.. يمخر شيطان يومه ، بعد أن عبرها ذات يوم ، كان
الزمن الأول يحمل بين إرادته ، وهج الصبر الذي يقارع الظلم من أجل
وطن صاف ، لا يغيب لهيبه في الريح الخالي.

.. ..

يحمل أسفار مجريط ، ، يشرب حكمة أسد بن الفرات ، وهو يرفع
سيف "الأغالبة" الذين وصلت مراكبهم إلى حيث يميح زورقه أمواجه.
تعتلي أمواج البحر لدائنها ، تقدمها للنوارس الضاحكة التي تحلق فوق
رأس الزورق ، وهي تبصق في وجوه أصنام الليل ، الذين ظلوا يجوبون
القرى يكسرون الدفاء ، ويشربون كؤوسهم على بساط لحمها ،
يحاولون القبض على أسئلة عينيها. لقد حاولوا ذلك كثيراً.. فوقفت
جامعة الزيتون. تفتح منافذها ، فتناثرت المقاعد من تحت بايات تونس ،
وميرات المدافع العثمانية ، ، ولبس الدغباجي" ثوب الفرح.

.. ..

.. يطلع فوق الأفق..

.. يتسلق الانبهار..

الانهمار اللذيذ يدق ساعة فيئه في المياه الهائجة ، بين الفراق والفرق ، الصدق الملون ، نسيج من اللحم الحي ، الفقر المسلح والياسمين الفذ ، وهو يقبع بين ساريه.. وساريه. الخوف المشنوق تتدلى أرجله في الزمن الغائب ، يضع بصماته على أجنحة الأزقة في قرقة وأرتال "جربة" ويقطفها نجمة نجمة" .

.. ..

..تسترخي الوجوه على صفحات هواء المركب..

يهطل صمت الماء ، فيرحل الأحمر إلى الأحمر ، والأزرق الوحشي يلثم أنفاسها العطرة ، يعطس الرذاذ ، فيبلل الوجوه الحاملة. تشمر الرموش عن عيونها .. تتناول الأذان لحظة توقف الزورق الموحش.. يقرصه الصمت الجحود اللدود.. إنه البعاد المدجج بالعباد وغياب حنان الأم التي زودته بأرغفتها الجافة..رفع رأسه إلى السماء ، يبجر في جداول النجوم تحضر إليه تومية تتداخل الأفكار والقلوب ، فيمسك جدائلها المتدلّية على نهديها. ويتوقف عن الحملقة.

.. ضوء الشمس يسحبه إلى الأمام..

والوقت يتنفس زبداً ، ويسفح ليله بضوء جوارحها.. يعتصر حليب الورد ، يشطب من طريقه محطات كثيرة.. يقتحم جراحه ، ويقترض بعضاً من الوقت ، يحضره صديقه الذي مات فتيل رائحة الخبز ، والأمعاء الخاوية. يتأسف كثيراً وهو يشاهد كيف تصفع أضلاع الشوارع المنافي ومعارضها. التخوم عارية. وما تيسر من خطايا تلوث خطاياها. وهو يعرف إلى أين؟ لكنه لا يعرف إلى متى وإلى أي مدى؟ فأين يذهب في لوعة الخواء ، ولذعة القلب المصطلي بشبابيب بين النار وألوانها الغامضة؟ يأخذه الفيض من جديد.. يشاهد وردة حجرية مزروعة في طقس جنائزي.. قهقهات الرؤوس المقطوعة والأعضاء الملونة بأصباغ الكرابيج المملحة تبصق في وجه الكروش التي لثمتها القروش ، وتصفع وجه دراكيولا القابع في حديقته العتيقة التي يرهد نسغها دم الفقراء من الناس.

مياه البحر تزدحم بأفقها فيعضك لثغ هواها . حلم الوصول إلى لمبادوزا يحتاج إلى فعل أبيض . يندلع في نفسك المنفي وأنت تتعثر في زوايا المكان عبر فجر طالع من جعيم السواد . يغادره الشاطئ دون التفاتة منه . الكلمات تتراجع ، ترفض الخروج بعد أن يبست في الحلق ، وظلت واقفة بين الصدر والبلعوم . الطراد البحري يمخر عباب الموج ، مطلقا أنواره الكاشفة على سطح الماء ، يجري بسرعة ، يخفف من سرعته . تدور الأنوار من جديد ، يتعالى نباح الكلب عندما يلمح حركة الزورق في الظلام ، الأمر الذي يثير حفيظة أمر القوة ، صمت كأنه صمت القبور . يقبض على الأنفاس . تنزل الرؤوس إلى أسفل . وتتكور الأجساد في ذواتها .

- اصمت إنها الشرطة البحرية .

- من أنتم؟!

- نحن تونسيون . جئنا نبحث عن عمل .

أشار الضابط لأثنين من عناصره بالتوجه لفحص الهدف يتقدم الشرطيان ، يسبقهما ضوء مصباحيهما القوي باحثاً في ثانيا المكان ، حتى يصلا إلى عمق الزورق .
.. يتكاثر رجال الشرطة ..

يقتادون العيون المشدوهة إلى أحد المراكز الطبية ، لتأكد من خلوهم من الأمراض المعدية . يحزمون هذا التجمع البشري الصغير في معسكر أعد لمثل هذه الحالات ينظر من شباك الحافلة ، محاولاً التخلص من الآلام المبرحة التي يطلقها الحذاء الذي يعتصر قدميه بقوة لا مثيل لها . ينزف ألمه أكثر . يتأوه بصمت . يذهب به خياله إلى هناك . ها هو يسير في شوارع روما الشوارع المنظمة ، الكاتدرائيات ، الحدائق النظيفة ، الناس كل يسير في طريقه لا يلوي على شيء ، فكل دوره ، ويؤدي عمله بصمت وهدوء ، يستقل الحافلة ، ثم ينتقل منها إلى قطار يتوقف في المكان المخطط له . يبدأ الركاب بالخروج ،

بينهم "محمد" حاملاً حقيبتيه القديمة ، الصغيرة. خطوات رسمها في ذهنه مسبقاً. يخطوها ، ثم يتوقف يذهب بعينيه إلى كل اتجاه ، العديد من الألوان ، والأسلاك البشرية تنظر في وجهه.. يلتفت حوله وعندما لم يجدها يهبط من أعلى.. وسادة كالغيم بيضاء ، تؤكد أن أصل الطريق خطوة واحدة.

.. ها هو في روما يحمل وطنه على كتفه..

مفاهيمه شحنت متفجرة ، تحلم بمجتمع جديد يصنعه الفقراء للفقراء ، إنه لاهوت التحرر الجديد ، في مدينة مقدسة نازلة من السماء ، يطوف في أفقها حصان أخضر راكب يصفع الموت.. يعتصم بصمته للحظات ، ولأنه يعرف كل شيء لم يكتف بدور الساكت إذ أن الأسئلة لم تدفن بعد.

- الغياب مقبرة الحب والحياة رغم جمالها ، كذلك ، كما أن الحكايا كما هي لم ولن تتغير حتى إذا غيرت.

- إنها لغة المراحل ، فالوجوه عزلة يومية تراققني ، تفصلني عن ماضٍ ما زال يلاحقني ، ولا أدري كيف ألقاه ، وأتعامل معه ، إنه يكبلني بسلاسل ، ويحضر في نفسي ألمه كل لحظة.

- هذا حديث لا يفيد ، فأصعب الأمور أن يختفي عدوك داخل جسمك لهذا يحيي الفرد إذا قتل عجزه ، ورفع راية الانتماء..

.. تتقدم منه ، تقدم له قبلة دافئة ، وتلة من الأصدقاء القدامى. يقف أمامها.. يتفقدتها.

.. تبسم كئيبان الرمال في وجهه وهي تتفصد عرفاً وتعلق تواريقها على أصداء الذاكرة.. يودعها سره على حين غرة من غربته.. الضفيرة لم تغير لونها ، ينظر للأرض وهي تفصل بين موت ومنفى..

النوارس تخطف عشب البحر لاهثة. والزبد المهاجر يعانق شعاع موج غربته. ركام الحديث يعانق كتلاً من القول..

- هل يتفقون على أمر إن لم يتفقوا على موعد.

- المواعيد نافذة الأيام. لا بد منها.

- لا مواعيد بيننا.

- لكن معرفة الحقيقة، ولو مرة أفضل ألف مرة، حتى لا يظل الشخص يعيش كذبة كبيرة.

..

..هنا يهتمون بالثقافة ويقرأون..

تهمهم الرفاه، فكل شيء مكفول، العمل، الصحة، التعليم، تتنافس الأحزاب لخدمة الناس، أما نحن فقراءتسا مأزومة، وثقافتنا مهزومة وأجمل ما في خيالنا هو الخبز والحرية التي سبقونا إليها بأجيال كثيرة ممتدة حتى آخر أعلامنا امرأة من أحفاد بوليوس قيصر، تنظر إليه بدهشة تراه فيها زهرة برية، لا زالت بكارتها طاهرة، عندها كل ما يتخيله المرء، بحيث يصبح الواقع أهم من الخيال أشاح عنها بوجهه.. لم تغضب لذا فكر أن يعتذر لها عما بدر منه وفكر به يتسائل بينه وبين نفسه عن هذا الحظ الغريب وكيف رتب هذا اللقاء المباغت. لقد حاول الهرب منها في الوقت الذي لم يستطع فيه الهروب من نفسه.

..

.. تحضر إليه 'تومية'.

- لقد أتعبتك كثيرًا، لذا فإن ضميري يدفعني لكي أبتعد عن خاطرك. فقط حاول أن تتذكرني دون كراهية
- وهل يكره الإنسان نفسه؟
- هناك شيء رائع يلح عليك، وهو يتساوق مع لحظات الطفولة غاب وابتعد. فلا تبحث عنه..

..

..تتمتم ذاته لذاته..

يعود إلى الوراثة مرة أخرى. فما باح به ما هو إلا حديث في ليلة أرق أخرجته من صدره كي يريح به نفسه.. ربما هو طبيعة الخشن الذي يحاصره، أو أن سوء الحظ يلازمه.

..

.. إحساس مبهم يجول بخاطري..

هو من نوع جديد لم أعده من قبل.. المدينة مليئة بالتناقضات العارمة ، الطافحة على السطح. أطمأ الشارع بقدمي، فأحس بقدرته على مقاومة الشتاء ، شارع طويل كلما إرتديته صرت أبت له همومي ، وأوجاعي. فتخذل ذاتي العديد من الوجوه، المتعبة التي لا زال السكوت يسكن ملامحها، وحركاتها بل وحتى تواريخها ، وأيامها التي تذوب في عقارب الوقت.. خصوصيتها مجهولة لكنها غير مكبلة..

أتنفس المكان. يغزوني الحزن المجلل بالقرف. فلقد غاب. وابتعد رجال يقبضون على أركان الزمن بكل تناقضاته يدفعني إحساس غريب لاقتحام هذه الصومعة المبهمة.. الوقت ينثر رذاذاً مازاً نحو الرغبة

- ما يؤلمني هو أنك لست غافلاً عما يحدث كل يوم هنا. وما يحدث أيضاً هناك. فوجع الغربة هنا ، ووجع الفعل واضح هناك.

- الفخاخ المنصوية في قانون الظلم كثيرة

- لقد طويت ما بيني وبينك منذ مدة فلماذا تعاتبني؟

- أما أنا فلا أستطيع ذلك. لأنه لا يصلح الوسيلة السيئة إلا الغاية

النبيلة

.. ..

يقسم لها أن غايته نبيلة.. بعد أن تغزوه الغربة من جديد ، وإن كانت غربة مغايرة يفتح قلبه لهوج الرياح.. تأتيه الصور مسرعة على جناح الوقت المخيم الذي يضم أناس الزورق مكفهر الوجه. والناس كذلك. لم يسمحوا لهم بالتوجه إلى حيث يريدون. يحضر أحد رجال الشرطة.. دخان مختلط الأنساب يقف أمامه. ينظر إليهم وهو ينفث الدقائق الثقيلة.. الزورق يحمل التجمع البشري البسيط عائداً بهم إلى قواعدهم الأولى.. ها هو داخل الزورق يضع في عينيه سيدي بوزيد فيبكي بحرقة ، إنها مدينة بنت له موقعاً في قلبها فأحبها.. يعانقه النوم صافياً.. وهو يحمل حلمه ووطنه على كتفيه ويعود..!

...

.. بدأ يفكر في مشروعه المستقبلي المقترح..
إنه فرصة لا تعوض حيث بات مقتنعاً بأن ما هو مقدم عليه سينقذه
مما هو فيه.. صار بيت همومه، وطموحاته لوالدته، وهو يفكر في
هذا الأمر المستجد، ويطلق نحوها فرحاً يشع من نظراته العميقة،
لقد أشعرها بأن شيئاً جديداً في حياته قد بدأ، وأن حفنة دنانير قد
تفي بالغرض..

...

يقطف بعض فرح..

وهو يشرب الشاي الرخيص الممزوج بأحلام مستقبل يتمنى أن
يكون وارف الظلال يعفيهم من الناقاة، ويجعلهم يتنفسون الصعداء
هكذا هي الأحلام الصغيرة، تؤكد أن طقوس الفقراء العائلية حميمة
وجميلة.. ولها طعمها الخاص، عندما يدثرها الهوى، واختراق العيون
الخالمة المحبة لأحلامها المشروعة داخل البيت، وخلف همسات
الأبواب، والشبايبك..

...

.. الأسرة الصغيرة تتداول فيما بينها الحديث، بحب وسعادة..

تتذكر كيف خدشت جبهته السمراء، أظفار الزمان، لكنه لم يبع
كبرياته، وكيف حاول أن يهاجر بعد حرق المراكب، والمسافات
إلى بلاد الضياع، أرض العسل، الحرية، والعمل ليبحث عن مرساة
يلقي عليها رأسه وتحبه عند المساء، وكيف ظلت تحضره، وتحضنه
كلما همس البحر لأمواجه، ليؤكد له من جديد أنهم سرقوا وما زالوا
من عينيه أمواج الفرحة.. .. يؤلمه أنه المهزوم الوحيد..

لأنه لم يستطع ردعهم.. والمأزوم الوحيد هو الشعب الطيب الذي

غيبته النوازل فهزم بالضربة القاضية، من كافة الجهات التي تطلق على الناس، قانون الرعب، والكبت والصمت.. نقلت عبراته من عينيه فيفلت من بين أصابعه حلمه يحزم الضجر حقائبه، ويقف أمامه الحزن، والانتظار حيث يتمثل طلعة أخرى من الأمل تحاول أن تنتصر على خوفه، إنه الصبر الذي يخترق كل الحواجز، ما يجعل التوجس الذي يرفرف على النهر، يمسح برائحته قسمات شوارع، سيدي بوزيد، الترابية، ومفارق طرقها. وما زال جوهره قائم في ذاته، ورأسماله عربية صغيرة عليها بقايا خضار يجرها وتجره، وهو يطوف بها في شوارع المدينة، لعل هناك من يشتري على الأقل هو يحاول، وما زال يحاول.

...

هو مغمم بالنعاس، لكنه لا يستطيع النوم، هو نائم، ومستيقظ، يعانق التعب، ويعانقه في نفس الوقت رغم تعب، شموخ النفس، والروح. فهو لا يملك في عريته سوى أيامه الحزينة وبعض الخضار الذابلة، وأشيطان الشمس حكايا أحلام ضعيفة تنهشه بحنينها اللاغب، كل مساء أسئلة كثيرة تتابني لم أجد لها جواباً:

- إحساسك هذا ينم عن إيمان حقيقي بما حدث وسيحدث .
- هل تؤمن بما سيأتي أم أنك ترفضه؟
- أنا لا أطمئن لأي شيء يقترحه النظام.
- هذا مؤشر جديد يعرفنا مفاهيم الخروج على القاعدة.

...

.. يقطع شفير الحلم، بعد أن يعصره الطنين الحاد.. يقتنع بحديث الطيف بأن الحلم مهبط رأس الإنسان وعالمه، وعالمه هو وطنه.. يرضع ثدييها.. ويوح يضيء حانات الأرض. فيصبح الندى والتراب نشيد الحب، والأمل الذي طرز الدنيا، والأشجار بالأوفياء من الرجال، عبر صفر معرفة، ورؤية عويصة، يرى كل الكون داخله، يحاول أن يكشف الغامض، بهدف الحصول على الضالة واكتشاف المستور، فمن حقه أن يعيش وأن يقتل الفقر هكذا وقفت الكلمات

على لسانه:

- يجب أن نحارب الخطأ ولا نخشاه، فنحن نتألم منذ ثلاثين عاماً
- حياتي جوع عذاب، واختناق، ولكن حب هذه الأرض كلمة تأمل،
أقولها دائماً، وهذا حق لي.

- إنهم يحبون بناء السجون لتتسع لكل الناس، لمصادرة الحاضر
والمستقبل.

- لكن الحاضر زمن غير موجود إلا في المستقبل. لهذا تتصادم
النوايا والمواقف والإرادات.

...

...يلتقط رضاب أنفاسه..

يحضره الطيف فيذهب عنه الطنين بعيداً، يصبح الذهن أكثر
صفاء..، تحضر إليه صورتها بعد أن، يستحضرها.. يقارن بينها..
وبينها. يفكر مقتنعاً، بأنه سيظل يفكر إلى أن يصل إلى ما يفكر فيه
ألا وهو تغيير كل شيء.. يتذكر كيف عذبوا صديقه الكهل، لأنه
رفض المساومة بعد أن أصبح غير قادر على توفير لقمة خبز شريفة،
لقد كان الضرب قاسياً، أظافره، وأسنانه لم تستطع الصمود أكثر،
وكأنه قدم إلى هذه الدنيا ليحمل الأسي والعذاب حيث الجريمة دون
إدانة والإدانة دون جريمة، وكيف يوضع الحق في غياهب الأوراق،
وتنتهك الحقوق والحدود، فلا يستطيع الإنسان إعادة الماضي لأن
الحياة لا تسير إلى الخلف، بل إنها كالريح تتجه دائماً إلى الأمام،
لقد ضاع حلمه أمام قسوة الحياة، فصال وجال كي يبعد عن نفسه
المسئولية، لكنه ظل واقفاً، ما يؤلمه تلك الاستضافة القسرية، التي
تقف بين الموت والحياة، وهذا ما يُشقي الروح، ويزيد العذاب.. خاصة
إذا كانت الحياة مزورة.. يحاول أن يجيب على أسئلة الطيف بالصمت.
- كنت أعلم أن هناك عالم لا أريده، ولا أريد أن أصحو منه بهذه
الطريقة..

- عليك ألا تكثر الشرود فالشرود يكثر الأحلام، والأحلام تكثر

الأخطاء

- المحبة حتى الصداقة، لا تشتري ولا تباع بالمال، ولا بغير المال.
 - في غمرة الكذب تظهر الحقيقة، وفي غمرة الظلام يظهر الضوء،
- فإلى أي درب تقودنا هذه الدنيا.. ١٩

..

.. تبتسم خلاليه النافرة..

يقف شعر رأسه غضباً... فتغيب عنه النظارة للحظات، يتقدم جازاً عربته نحو مكانه المتبع الذي تعرفه "سيدي بو زيد" أنظر إليه، وهو يخب في شوارعها.. أحيائها فيتجافى مزيج من البرودة والنار، فهي تقبع في كأس أمامي، أنظر إليه، وأنا أعود إليها. ما زالت تقبع مكانها.. يستيقظ في قلبي الوهن عندما أعود بخاطري إلى ذلك البلد البعيد.. أقطف زهرة فرح، وأنظر كيف تتغلغل شوارعها في أعماقي وذاكرتي الدموية.

..

.. يفكر جيداً بعد أن يعود إلى نفسه للحظات..

يحاول أن يتحاشى مواجهتها، لا يريد أن ينظر في عينيها، حتى لا يرى وساختم فيها، فدموع العين تعبير عن جراح القلب، يومها وقفت أمامه، ولأنها تعرف نواياه، صافحته بيد بارده، ووجه ميت. فهو من هذه الجوقة التي لم ولن يتغير لا أداؤها ولا أفرادها، يفرك لسانه، فتترشق الكلمات صارخة، عفية.

- خطأ شائع، أفضل ألف مرة من صحيح ضائع، وما يمارسونه خيانة لكنهم يعتبرونها مشروعة..
- اكذب ألف مرة تصدق نفسك ويصدقك الناس.. هذا هو منهجهم وسلوكهم..

..

.. كانت تجرية مرة، تفتقت كالحلم..

كل يوم أصحو، أرشف قهوة الصباح، أقتات حلمي، أقرأ التقويم اليومي.. أفرك أوراق الذهن، وأنا أنظر من ستارة شباك بات عليلاً،

وأحلم أغط في النوم، أرشف الحلم وأشربه شرباً.. أصحو أبحث عنه بين التفاصيل المعهودة للأحلام.. أمرق بعيداً عن رجل قليل الكلام. يمر بي هاجس، يحضر صخر السؤال..

- أريد أن أعيش حياة جديدة، تتناسى الماضي تماماً. فأنا ابن الحاضر.

- لكن هذا شيء من الجنون.

- هل تعرف ماذا يعني ذلك؟

- نعم، وإذا لم يعرفني الناس، فأنا أعرف نفسي..

...

رغبات مبتورة تحمل على أجنحتها الرغبة والخجل .. والقرف في غالب الأحيان، فأنت في وطن كل من فيه يعتقد أنه يعمل من أجله، لكنه في الحقيقة يعمل ضده. يستمع لذلك .. يزم شفطيه ثم يشيح بوجهه ويمضي.

...

بات يفكر في من هو الأعلى. النفس أم الوطن لذلك أشفقت عليه مما هو فيه. كما أشفقت على نفسها. لقد ضربت المقادير ضربتها الكبرى، فتحولت من امرأة إلى نجمة تطل عليه وتتأسف له. يتقدم رجل طاع له قبضة قوية، باطلشة.. لكن نفسه خاوية، أس لها، فلم يمهلها ولم يمهل نفسه بل أراد أن يستزيد حتى لحظتها الأخيرة، صار يحرق جسدها بنظراته الملتهية، أراد أن يفتصبها بزواج ترفضه، بعد أن غاب الوطن عن ذهنه، فكيف تستطيع امرأة أن تعيش دون رجل.. وكيف يستطيع أن يعيش دون حب؟.. يعيد إنتاج الألوان يحاول ربط الحبل السري بينه وبين وطنه.. رهبة تجتاح المكان جعلته لا يجهر بالكلام.. فالتلسان لا قيمة له في الكثير من الأحيان، يفكر لماذا يلدغ الإنسان من ذات الحزن أكثر من مرة. لا ينطلق سيل من الكلمات، يحمل جملة من الأسرار والرؤى.

- عندما تفتح بوابة الموت، يتضح اليون الشاسع بين حب الذات،

وحب الوطن.

- المرأة تحب ابنها وذويها. لأنهم قريبان الوطن. إنه الحب الحقيقي الذي لا يُفنى إلى الخديعة أو الخيانة.

- نحن نحيا على حافة الموت، وكى نتصر على ذلك، افتح قلبك وابحث فيه عن وطنك.

..

.. يطلق حيالها حبًا من زمن البراءة والأحلام الوردية..

لذلك لم يصعب عليه الأمر، رغم بشاعة ما يحدث. فلقد سال دم الكرامة على الأسفلت، لهذا كانت السقطة موجعة.

..

.. حالة فراغ نفسي تجتاحه..

جعلته لا يستطيع التعرف على نفسه.. رآها فتغير للوهلة الأولى لديه كل شيء.. ها هو يفتح بوابة الحزن الذي ذهب به إلى هناك فهما من تلكم الأرض التي تنتظرهما في نهاية الطريق الذي لا يعرف إلى أين سيذهب بها. فهما معًا، يود أن يظلا معًا. لا يبعث أحدهما بالآخر لكن كل منهما لا يواجه إلا نفسه، لأن كل أمر يوصل إلى الآخر.. المرأة والوطن..

..

.. الصبر وجع الفقراء وحلمهم الجميل..

والصمت سيف يطيح بالطهر والعفة، كونه يفر كثيرًا من شلال الذاكرة، أنظر إليه يسحب عربته المتهاكمة. يدفعها للأمام مرة، وهي تسحبه للخلف مرات.

.. أسقط من مداري..

فيذوب في حمى اللقاء الذي يوحدنا.. لقد ظل هواه مدججًا بالحلم، والحمى، والوجع المضرخ باللظى. تسافر الحيرة في دمه، يرشف حناء البرقوق، فينتعش دولاب السؤال دوائرًا على الشفاه.

- أنا لست صديقًا للنسيان، فكيف أستطيع أن أقدم للناس حكمة

الآخرة؟!

- السجن جميل، لو تركوا حلمي يحط على نافذتي، لتصبح حياتي أرجوحة مربوطة بأحاييل الصمت.

- الحياة مليئة بأسرارها، وأنا متأكد أنك ستجد هذا الذي تبحث عنه، وتريده، فالحق لا يوزع نفسه، بل يوزعه الآخرون..
- لا تنقل هذا الوفاء وتشره..

- ما أعرفه، هو الذي أريده، ويريده الناس إنه جزء صغير من الحلم الذي كنت وما زلت أحلمه.

..

.. ينظر حوله، يؤلمه ما يرى..

رجل مصاب، بزهير الرؤية.. ينظر حوله، يحدق.. يتفكر.. ينظر بقوة بهدف التصدي لمشروع موت معين، وكل ذلك من باب العناء، والرؤيا المقبولة.. وهم يستبدلون المرّجل بالراهن. ففي الكثير من الأحيان يكون العاقل هو الضحية..

.. يحقق بالحلم ما لم يستطيع أن يحققه في الواقع..

ها هي تندس في فراشة لإقناعه.. سكب في لحمها نعنائه السائل، كفاتئض قيمة لحب من طرف واحد.. يسترد لونه في أتون حكاية أنهكتها الغربة، والبعاد. ففي الحكاية غرابة وفي الغرابة تشويق، ورغبة في الاستمتاع..

لقد أعلم الجميع بأنه لم يشعر في حياته بيقظة كهذه اليقظة فقد عاد إليه وعيه الذي فقده زمنًا طويلًا فالإنسان عدوماً يجهل، وأحياناً عدومًا لا يجهل، رجته أن لا يفعل فعله بنهاية الحكاية التي قامت بينهما.

- أفلع ما تقول، ولا تقل ما تفعل، وأحذر، فقلبي جرح لن يندمل.
- ما يحدث تشابه في المواقف والأحداث والزمن بعض سلاحنا..
- قد تطعن الحقيقة وتكتم أنفاسها فلا نجد إلا الصبر مفتاح الفرج.

- أنا المطر عشقاً في هواها، لا يهمني إلا مبادلتها المشاعر.

- مبادلة المشاعر شيء ، والفضلة شيء آخر .

.. ..

فتح باب ذاكرته ، بعد أن هجع الجميع وظل وحده اليقظ ، ولأنه يمتلك هيبة دون سلطان ، ، بدأ يفكر كيف يتصدى لما يعتقد أنه مشروع موت معين ، فعند التفكير في مواجهة الموت ، تكشف النفوس ما بداخلها .. لقد أحبها ، بعد أن حبسها خلف رؤاه ، وأفكاره ، لم تعد تعرف أحداً إلا هو .. يغضب من أجل ما يسمع ويرى ، فقد أئف ذلك كثيراً .. لذا يتأسف لأنه يحب وطنه بقدر ما ينكرون هم ذلك . تنظر في وجهه فتأكد أنه لا يشكل سوى حكاية واحدة ..

- أنا غير غاضب منهم . لكنني غاضب لأجلهم ، لأنني لم أعد الماضي ، بل أنا المستقبل .

- المرأة تحب من أجل أن تتزوج أو تتزوج من أجل أن تحب . كما هو حال الرجل يعمل من أجل أن يقف على قدميه ، ويقف على قدميه من أجل أن يعمل .

- هذا الظاهر فقط بالنسبة لي ربما لكن الغير يفهمون ذلك بشكل مختلف .

.. ..

يربط بينهما وبين الأرض التي أحبها يجر عربته .. ويظل سائراً .. يتألم كثيراً ..

وهو يرى العيون تراقبه ، عيون متلصصة ، وأحياناً ساخرة ، لقد فتح باب ذاكرته . بعد أن تركها لمدة طويلة . حكم فاسد مصاب بتصلب الشرايين . أضفى على الحقيقة بقايا رماد يعقد الحافظ حلمه بموت يعتقد أن الموت ينتظره في نهايته ، لقد اختفى العلم عندما ضربت المقادير ضربتها ، الكل في حالة انهيار ، وحدها صورة الزعيم ، هي التي ظلت صامدة .

- هو لم يقاتل من أجل البقاء ، بل من أجل الخلود .

- لا أحد يريدنا ، وكأنه فرض علينا أن لا نستمتع بالحياة "بايات"

يحرقون العصافير لا يحبون الحياة.

- لماذا تعارضني. أريدك أن تسمع وتصمت فقط.

- ستجدني أكثر من حمار..!

...

ما زال يجر عربته، ، يتألم أحياناً وهو يرى خضاره تذبل. يعتصره الألم.. يخترن حزنه في قلبه وصدره، فلم يعد يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان. كثير هو الحديث الذي يلاحقه كل يوم، وهو يجر عربته.. جمل كثيرة لا يستطيع أن يحبسها أكثر، لكي لا نضل خنجراً ثقيلاً حاداً يضغط على قلبه، ويقطع شرابينه، لذا يؤلمه كل شيء يمكن إصلاحه، بل وتغييره..

...

يحضره العطش.. يحتاج إلى تهيئة ذاته، يجب أن يعيش الإنسان آلامه الكبيرة وحده. فكل شيء بثمن، المهم هو تحويل القبح إلى جمال، يحدق في الفضاء تسرقه ابتسامة طالما ابتعدت عنه، جعلت قلبه ينكسر، لقد جاوز التضحية إلى الموت في سبيلها.. منذ ذلك الوقت. تحول كل شيء إلى كابوس. أصبح ريقه مسدوداً بالأشواك في وطن تتساقب من زرقة العيون في جداول الحب، ومن جانب آخر للمخدرات فيه دورها الكبير في حركة التاريخ أكثر بكثير من الحروب التقليدية..

...

.. بكت وحشة لأنها تعرف أن أعظم قصص الحب والثبات، تبقى داخل الإنسان، إذا كان يغار على حبه أكثر من نفسه هذا هو الحب الأكيد.

- المهم تحويل القبح إلى جمال.

- لكن لا كرامة في الحب.

- لقد كسرت كرامتي، وانتهى كل شيء.

- هناك من يعتبر كرامته في المال، ويتعود على ذلك بسرعة، بل

أسرع مما نتصور.

...

يصدق وصمته في الفضاء ، يهرب منه الكلام.. فيهرب من نفسه فهو يعرف أن الوطن جميل بأهله ومشاكله.. يذكر ذلك ويعرف.. أن العديد من القضايا والأمور تأخرت كثيرًا صار يقيم في الزمن يحتر فيما يشاهده ، يشحن ذاته بالموجز الملهب.. وهي صارخة تقف في المقدمة مكونة لحظتها التي تذوب بعد هذه اللحظة ، فلقد بانة الحقيقية ، هي أمه التي رتبته يحس بها ، وكأنه يراها لأول مرة..

غيمة من نعاس تتقدم زهرات جنائن خجولة. وهج واسع العينين والفرقات ، يعانق ثوبها المطرز الذي يحكي أوجاعه فيسيل هواه الأخيلي ، عيناها تمتزجان بالتراب الأرضي. يقف الليل على مخدة لغيوم اتكأت عليه الحكايا المسافرة. في الأفق. أقمار محجلة تروض النخيل ، لا تريد أكثر من الممكن.

.. يوم صباحي يدندن في المدى. يرسل قصتها لكل المعمورة..
وفراشة ترقص في الحلم الأخير ، تخفي طفولتها بثوب شعاعها.
- لا أو من بالنجوم ، ولكني أحب الفأل الحسن.
- المرأة تحب أن تتزوج ، وتتزوج من أجل أن تحب.
- وحدها القبل فقط تعطيك عمراً أفلت منك. وحده الوطن يعطيك حباً فيظل لصيقاً بك.

...

تصرخ في وجوههم. دعاهم أن يتركوا حسم الأمر له وحده ، أو للأجيال القادمة. يتألم لأمه تخرج من جلدها من أجل قضايا عتيقة ، تترك صمتها في زمن السرطانات رغم قدرة هذا الزمن على التغيير الكمي والكيفي.
.. يهمس لذاته..

قد تخفي عنه بعض الأشياء ، ولماذا لا يكون لها ذلك ، ربما هي لا تريد أن تبوح بالكثير ، لكنها تريد أن تعرف كل شيء ، ألا يجوز لها ما تخفيه خاصة ، وأن لكل شخص خصوصياته وربما أيضاً لأن القيم

تتهدم أمام المصالح.

- هل رأيت رجلاً يهزم ، وهو يقاتل لكي يموت.. ١٩
- هكذا هو حب الوطن الحقيقي. إنه الحب الذي يشتري بالمال.
- الرجال مواقف وشرف الرجل كلمته.

.. ..

.. الكحل يطرز حزن الأرض ببكاء أخرس..

يحياء بين أهذاب البكاء، وهو يجرع عربته كما اعتاد. يمسح عبر البحر الطويل غباره. رجل تفوق على زمانه. يطلق جملة هوى وحكايا من فوهة جرحه ، وأرض تلد من زيتونها رجالاً يعرفون ويؤمنون بأن الوطن حق أصيل للفرد ، لا يمنح ولا يُمنع.

.. يناجي عربته..

يقارن بينه وبينهم ، وكيف كانوا يسرحون في المطاعم الفاخرة ، ويختالون في أرقى الفنادق ، كان هو وأمثاله يأكلون التراب ، يعرف أن العار في الفقر الذي يعتل في النفوس ، لذا لا بد من إسقاط الغبن ، وحتى لا تكتم أنفاس الحقيقة.

- الجامعة مصنع يعيد إنتاج الأيديولوجيا.
- إنها ديمقراطية الحجاج القاتلة إذا تكلم قتلناه ، وإن سكنت مات بدائه.

- السياسة هي أن تعرف السيء من الأسوأ.
- لقد ضيع عمره في انتظارها. ولا بد من قطف الثمار.

.. ..

.. حمامات بيضاء واقفة بين المروج..

تعرف أن الفقرا آفة المجتمع ، لأنه هو الذي يؤدي إلى خلل الميزان الاجتماعي.. عائلة مسحوقة في بيت يصفق للفراغ ، كل شيء فيه يتلاشى ويذبل.. بيوت متلاصقة تمسك برقاب بعضها البعض ، إنه ابن هذه المدينة التي اخترقته بحبها وتاريخها ، فيها كل مساحة صوت وكل كلمة فكرة ، الحياة فيها لأناس سلبياتهم أكثر من

إيجابياتهم.

.. ..

.. تعود إليه ذاكرته..

يحتضن قطعة من أنفاسه المتلاحقة ، وتأوهاتة التي تملأ المكان ، تبسّم في وجهه كالمنقاء التي تنطلق من رماد ماضيها.. ومدينته الصغيرة ما تزال صغيرة تعانق الحوض المنجمي ، وكأنها خرجت للتو من الماضي. يمتلك هيبة دون سلطان.. هو يعرف أنه في هذه الليلة ينتهي كل شيء .. أراد أن يغتصبها بزواج ترفضه ، بعد أن اغتصب مستقبلها ، لذا بات عليها أن تموت وأن تقدم أبنائها قربانا لتحررها.. هنا رجل تشرد في العواصم حاملاً خبر المنافي ، يعرف كيف ينتصر الحب ، بعد أن تنكسر الحواجز ، ويعرف أن الفرح لا يدوم ، كما الحزن كذلك. يقودنا إلى حيث نجهل. الدول المجاورة.. هي أيضاً تعاني. لا فرص فيها للعمل ، بل هي ضيقة على أبنائها.. هكذا حدثه أصحابه ، يحاول أن يطلق عليها موجة انتقام ، لكنه يتراجع في اللحظة الأخيرة ، لذا لعق صفعته ، وذهب يحمل على كتفيه همًا كبيرًا ، لكنه ترك خلفه همًا أكبر ، إنه القادم من خلف الغيم ، وهو يمثل توقيت الحرية ، بتوقيت شوقه إليها.

.. ..

.. ابتسامة حنان ، وكلمة جميلة..

فإلى متى تحرق الكرامة ، ولماذا..؟

الأرواح البشرية توقد بين الجدران ، يتساءل كيف تفهم الكرامة عندما يكون المتنفذ بمزاج سيء.. وهو يسحق ما تبقى من فرحة مهشمة مفترضة. في حوار مع السكوت العميق ، يمتلك الكثير من السعادة التي تتخطى معنى البقاء في الحياة التي يعيشها ، وأم لا تحمل هم الإجابة وإنما فقط هم الدعاء ، وحديث الصمت.

.. ..

.. امتد يفكر فيما يجب عليه فعله..

لقد توصل إلى قناعة بأنه إذا كان هناك خسارة ما ، فإنها ستأله وحده ، أما إذا جاءت الفائدة ، فإن الجميع سيحظى بها ، فهو بقلبه يرى ما لا يراه المبصرون. حكايته لا يهتم بها أحد ، رغم أنها تثيره ، وحده ، إذ أنه عزم على أن يثأر للماضي بكل ماله ، وما عليه .. يتألم الهواء ..

بجات قصيرة تطغي على اللحظات التي تقبض عليه من تلايبه ، علامات تبيض رموزها بين لحظة وأخرى ، كحالة محيرة بين الضوء والعممة ، تجعل من هموم الدنيا ، قصة خاصة ، ومتوجهه ، تصفع إمكانية عدم السكوت ، والصمت المدقع يذهب إلى خلف الأحياء المتميزة ، يعرف جيداً أنه ليس من العيب جر عربة القمامة رغم أن ثقافته ترفض ذلك ، إنه يخشى أن يراه أصحابه مع أنه ليس هناك عيباً .. تحضر إليه والدته .. يشكوهم إليها ، كما كان يفعل دائماً فالحوار ضروري في حالة كالتى تتابه ، لأنه يساعد على استلطاف النفوس ، بل وضبط العاطفة بالحق ، ومع الحق.. وهذا عين الصواب وجوهر المعرفة ..

- كل هذا لك يا أمي ، فكل دمة تفارق عيوني ، إنما هي من أجل عيونك.

- أنت من قلت أن العمل ليس عيباً ، وليس له علاقة بالوقت أو المكان أبداً.

- لقد مارس وعي التراجع والانحدار ووضع قدمه في ملف الزمن الحميري.

- لكن من يرفض المساومة على مبادئه ، لن يخون العهد.

- المهم أن يكون هناك مردوداً مادياً ، فلا دخل لنا نعتاش منه ، والحياة تحتاج إلى الكثير.

...

يتماوج ذهنه بين الصمت والانطلاق ، يتقدم نتقدمه رؤيته ، فيعود أدراجه إلى السوراء لقد تعب من أجلها كثيراً .. صار يهرب من الماء ،

ويحتفي بالرمال المفككة التي عرفت قدميه لمدة طويلة، ولكن لا بأس، فالوجع لفترة واحدة أفضل ألف مرة من الألم المستمر..
.. لقد سقط كل شيء في الوطن..

عدا صوتك يا أمي الذي ظل كقطعة ناتئة، محفورة في أعماق الفؤاد، لقد علمته الريح، الجفاء والجوع أن يبجر في فقره وأن تقرأ في خارطة الشوارع والأزقة أسرار التعب، والأخطار التي قد تنابه في كل لحظة...

.. ..

.. جدار محصن أمامي..

وخلفه شذى غيمة تائهة تسجج مستحيلاً بزوبعة الهبوب، شظايا صمته نار في سكون الليل، يتجاذب زيت وهجه المقدس والنار في مبسمه تسقي زهوره الذابلة هوى لدوداً يدقق فيقشرها بجنون هواء. يعرف أن من يسير في طريق الخطأ لا يحصن الخطأ، الزمن ينسى الألم.. يخفف الدموع تحديق في وجهه شمس "سيدي بوزيد":
- ما الداعي لجعلي أهتم بها هكذا. هل هو الخوف منها. أم الخوف عليها، أو لربما هو الفضول إنه أمر غريب هذا الذي يحدث.
- لقد عملت هذا من أجل الوطن، بعد أن أصبحت الحياة دون معنى، حيث تستبين الرحمة في الانتقام.

.. ..

تلتحم البراعم والأشواق، تبكي غدر الزمان، فلم يعد للحب والوفاء مكان بعد اليوم، هكذا قال لنفسه بعد أن صفعته الأيام، ولسعته بقسوتها، إنها تتألم.
- العاقل يتجاوز الأمور، ويبرر الأخطاء للآخرين، إنه يوجد الأعذار للناس، ويسامحهم، ثم يوجههم إلى الطريق القويم!
- لمصلحتك يا بُني ابتعد عن المشاكل. التقط رزقك بما تيسر، أي شيء يكفيكنا.
- يا أمي أنا لا أذهب سوى إلى الأماكن العامة، يجب أن أبيع ما لدي

من خضار، حتى لا تفسد.

- لن أترك هذا المكان، وأبحث عن مكان آخر، لأن لي خصوصيتي وأرجو أن تحترمي هذه الخصوصية! ..

.. يتدثر بحلم ونجمة..

.. تحلق فوقه غمامة..

يراهن أن حلمه لم يعد حمامة مكابرة، الحلم الطفولي اليبعد الذي مضى وبات من المستحيل تكراره، لم يقتل في دواخله أملاً يواجه العراقيين، ولا يموت. هكذا ظل يلف أيامه بطموحاتهم، وينثر أشواقه بينهم. حاول أن يترك همومه وأشياءه، وينسى تلك الأشواق التي عاقته لمدة طويلة، بعد أن ودع الراحلين بصمت، وبعد أن اختفى الكثير من الأشياء الجميلة .

لقد غاب الإحساس بالزمن والمكان لذا صار يتساءل.. لماذا كلما يموت شخص ينزل المطر..! وكيف سيتخلص من هذا المقت؟! ورغم أن القهر لن ينتهي أبداً، وأن الوعي والفهم ليس له علاقة بالفقر، والغنى وحتى الحرية. إلا أن السكوت نوع من الخطأ بل هو جريمة لا تغتفر.

- عذاب القهر، نوع من الغربة، وهو أصعب من كل شيء إنه صورة للألم الحقيقي.

- إنهم يقهرون الناس باليساطير، والمال. يعتبرون أن هذا حق لهم، لكن إطلاق الهواء هو الحرية، والحرية هي المكسب الحقيقي.

- السطوة الحقيقية لمن يملك أكياس المال. التي تقيد الأفواه، وتدوس الرقاب.

- لكن الإرادة هي المرجل الذي يحرك كل شيء.

..

بهاجسه الطيف. يسيران معاً على شواطئ "تونس" العاصمة.. ثم يسريان شيئاً في مقهى باريس "بشارع بورقيبة.. يعيده رذاذ القهوة إلى ماضيه القريب.. تحاصره الأسئلة.

تصيبه الحيرة ، لا يدري كيف يجيب فليس عنده ما يخسره ، ولكي يكسب تثقهم صار يتعلم كيف يصيب الهدف. لا بد أن يعمل ما يريدونه منه إنها العلاقة بين السائب والموجب ، لقد ظل خائفاً .. يحاول أن يتخلص من هذا الفزع .. وذلك الرعب الذي يضغط أعصابه ، بعد أن صار يعتقد أن النهاية قريبة .. تحضر أمه فجأة تنظر في وجهه .. تعيده إلى واقعه.

- لقد كان حليماً مرعياً يا أمي .. أنا تعب جداً .
- استعد بالله من الشيطان يا بني إنها أضغاث أحلام .
- إذن لماذا يلازميني دائماً ؟
- إن ما يصيبك مجرد إرهاق من شدة التفكير .

.. ..

.. عجوز اخترقت السنوات وجهها النخر ..

نجمة عتيقة حالمة تهتف في الفضاء للزمن الجميل ، تضم مشاعرها في صدرها ، تحديق في وجهه. تمسح قساماته بعينها ، تبتسم وهي تقارن بين فريقين .. نسائهم مختلفات عن نسائنا وكذلك رجالهم. كما أن أحلام الفقراء التي تمتزج بتراب الأزقة ، تشق الأرض باحثة عن فجر جديد ..

.. امرأة مؤمنة لا تحمل هم الإجابة ..

وإنما هم الدعاء ، ، وفتى يافع أرضعته حليب الكبرياء التي حملها حتى النهاية لم يمتزج بوررد أو غار ، لكنه ينتعل قدميه ، ويجر عربته كل يوم مرة .. وتجره هي عدة مرات .

- منذ متى وأنت تتعامل مع هذه العربية ، وهل تفي بالفرض ..؟
- منذ وقت ليس بالطويل كما أنها تقتل الوقت .
- لقد علمت إنهم يلاحقونك . ولا يريدون منك الوقوف في أماكن معينة ، بل قيل لي أنهم ضربوك .
- هذا صحيح . ولكن ما العمل ؟!
- فعل كهذا يجب أن يجرم ، ويعاقب فاعله . كيف يكون ذلك .

والخصم هو الحكم، يا سيدي من فعل ذلك إحدى فتيات هذا الوطن الجميل، وإن كان فعلها أسوأ ما في هذا الوطن.

.. ..

يستقل قطار الماضي البطيء وصولاً إلى محطة ما حدث. يتأوه وهو يتذكر كيف لطم خده كفها بقوة.. لذا أسقط في يده.. ما زاد من ألمه أنها رقيقة كالنسمة، طرية العود، خمرة الوجنات كعرق الورد الأخضر، أو عود الند. لم يتوقع أحد أن تقوم بذلك الفعل المشين لقد مرت على طريق طويل من المتاعب، السكن، التدخين، الغياب، وأشياء أخرى كثيرة عبرتها، وكأنها في حالة غياب. هي لم تدري لماذا فعلت ذلك، وكيف فعلته؟ حتى الرقيب الذي أصدر لها الأمر رجل وطني كغيره من أبناء الوطن ولربما أكثر من غيره، لكنه خاضع لاعتبارات ينفذها وإن لم يكن مؤمناً بها.. إنه موظف ينتظر راتبه الشهري. كي يعيش، ويقدم التزاماته الحياتية اليومية له ولأسرته هذا ما حدث.. وهذا ما جعل للحظات تقف رافعة مناقيرها إلى السماء لالتقاط أي خبر.

- فتاة جميلة وردة متحركة، كيف تفعل ذلك؟
- وهل تعتقد أن فتاة جميلة مثلها، تفعل ما فعلته رغبة منها، إنها كما أعتقد كيش فداء.
- لماذا تعتقد ذلك؟
- لأنها من أبناء هذا الشعب الطيب.

.. ..

- .. جنون مطلق لا يعرف الحدود..
- الألم النفسي الذي يحس به هو ما يؤلمه.
- حسرة خارجة من القلب تتنابه تعشب أوراق كراهيته، رجل يخضب أحلامه كل يوم. داخله ممتلئ بالقهر والغضب، لكن ابتسامتها الأمل والأجمل هي التي علمته إلا يستسلم.
- لا أستطيع يا بني أن أقدم لك شيئاً لأنك تعرف إمكاناتي البسيطة أكثر من أي شخص آخر.

- فقط أريد منك الدعاء، ومني الصبر الإرادة، والمثابرة، وكلها أمور مهمة تجعل الأخطار دون أهمية.
- هذا أمر جيد، ولم يعد غريباً، قد يطول الأمر، ولكن لا بأس.
- أرى يا أمي أنني لم أعد من الماضي ولا الحاضر، بل أنا المستقبل لذا قررت أن أتقدم نحو الخلود.
- لك دعائي، وأتمنى لك التوفيق.

.. ..

.. سيل من الكلمات وكأنها فزاعة الحقل..

تحمل جملة من الأسرار والرؤى يحاول أن يجيب على أسئلتها بالصمت، فلقد تمب الناس من الحديث، وتعبوا من ذكر الموت لأنهم يعيشون الحياة، لذا يروي همومه بعينيه وهو يجر عريته، وينظر تجاه البحر، يشكو له ظلم أهل البر.

- إلى أين يذهب بك هذا الطريق؟

- وما شأنك أنت بذلك، إن كان الموت ينتظر الإنسان في نهايته.
- كلا كما يعبث بالآخر، وأنت لا تواجه إلا نفسك، في هذه المرحلة.

- لقد قفزوا من خلف السياج حتى آخر الشوط.

- أنا وأنتم من هذه الأرض لهذا عندما سقطت كانت سقطتها موجعة.

.. ..

هي ميدان "سيدي بوزيد" تقف "تونس" على قدم واحدة تعاني من الاستبداد والتصحر السياسي والمعرفي، الناس يعيشون على الهامش، يقفون بين حافة الموت وحافة الحياة، ويموتون كل يوم ألف مرة. أنظر إلى ما يحدث، فأتذكر ما حدث أستغيث من نفسي وأشكوها إلى نفسي التي لم أعد أستطيع التعرف عليها، يومها أصبحت لغتي شائكة، مما دفعني للذهاب إلى البعيد أنا والكثيرين غيري، لقد كان معنا.. تحدثنا كثيراً. لقد وضع لنا، كيف أنه تحت وطأة التعذيب، وهذيان الوجه والشفاه، لم ينسى ما حل بالأهل والشعب والفقراء منهم بالذات

ومن هنا صار اللسان لا قيمة له لدي، ولدى الكثير من الناس. وفي غالب الأحيان. لقد صمم علي خلع قناعه، مؤمناً، بعد أن صار على قناعه تامة، بان الفعل هو الأهم، لأنه الأكثر حسماً، صار صمته الراهن مدوياً.. ينسى ما يحيط بالبلاد من عصف، وهو يرى ما يحيط بها من عذاب..، لقد أنيط اللثام عن ثوب الخوف والرهبة. فهي ممعوسة منذ أن ولدت وحتى موتها، لقد أعاد هذا الوعي، وعيه الذي فقده زمنًا طويلاً.

.. ..

.. بعض قلق يستبد بي..

المستقبل يحمل ملامح الغموض...، لقد صار أكثر صلابة في مواجهة المصاعب، كلما هدأت المشاعر، والحكايا شقشقت أحلام العسافير، ومنحته رجاءً كاذباً، بعد أن صار له موقع آخر، فالرجال لا يُعرفون بأفعالهم عند بعض الناس، هكذا كان الأمر وما زال، بل بأموالهم، وهذا ما يؤلم. لذلك مهما كان الإنسان صريحاً. لا بد له أن يترك شيئاً يحتفظ به..

.. ..

.. تحت وطأة التعذيب..

.. وهذيان الروم..

أبطال مجهولون هم في الكثير من الأحيان، أهم آلاف المرات من الرجال المشهورين. وكل منهم لم ينسى ما حل بالأهل والشعب، والفقراء منه بالذات، الذين يعيدون بدمائهم طريق التغيير. فالشعب دائماً أكبر من حاكمه، وشعب استجاب له القدر، لأنه أراد الحياة. لقد توحد الناس فرحاً، بد أن توحدوا غضباً.

- الجحيم قادم أيها الناس، من يهرب من الموت يلاقيه. ومن يذهب إليه تكتب له الحياة.

- أنا إن هلكت. هلكت وحدي، وإن نجوت أنقذ الجميع..

- ماذا يعني ذلك، وماذا تقصد؟

- أريد أن أتقدم للخلود.
- لكن الميت لا ينقذ الأحياء..
- بلى. فالنار نور مضيء في بعض وجوهها. كما أنه لا يضيرها كثرة الحطب.

.. ..

.. ضجة صامته ترتفع شيئاً فشيئاً..
.. وهي تلملم أردانها..

صوت باهت لرجل لا يعرف ذيل البغل من عنقه. لم يقرأ التاريخ ولا يعرف أن حركته أسرع بكثير مما يتوقع، لذلك عندما انطلق فحيحهُ النكر، جاء بقرني حمار.. "أنا فهمتكم.. فهمت الجميع، البطل، المحتاج، السياسي، اللي يطالب بمزيد من الحريات.."
جمهرة الناس تطلق تعليقاتها المتباينة راجية وساخرة.

- الآن صحوت، الآن صحوت فقط، وقد كفرت بهذا الشعب الطيب، الآن وبعد أن سبق السيف العدل..
- يقولون أن الأموال المصروفة تسد كل ديون البلاد، وتقتل البطالة، إن هي وظفت توزيعاً سليماً.

- لقد كان تعاقدنا مع الخوف تعاقدًا صارمًا، ملزمًا، لم نملك معه سوى أن نثرثر بصمت.

- لكن السوائل لم تفارق وعيها، لأن لها ثقافتها، إنها لغة الأطباق الطائفة، والذشات.

- الآن اتضح لنا مفهوم الوطن أكثر.

.. ..

.. يتخطى الطيف الحضور..

يستمتع بالحوار الدائر، وهو ينتقل من مكان إلى آخر ومن تجمع إلى آخر.. رجل جلال رأسه البياض الجميل.. يعتصره الفرح الممزوج بالأم الماضي. لقد اعترف له صديقه الوحيد، أنهم عذبوه وكيف فقد رجولته منذ عشرين عامًا، حيث قضى منذ ذلك الوقت، إنه موته الحقيقي. لقد

كان آخر الرجال في زمن الخِصاء.. بعد أن افتقدتها لزمن نثر لُكلماته
ماراً نحو عينيها. ماسحاً بها رغبته التي حضرت بقوة، التي كان يود
لو استطاع امتلاك بعضها منها في شبابه.

- " فرصتكم أيها الشباب التونسي، أن تقدموا لتونس ما لم تقدمه
نحن لأننا قد هرمنا. من أجل هذه اللحظة التاريخية"

- اخلعوا قلوبكم.. وأطلقوا بهجتكم، لقد أغواني النور، وأسكرني.
لقد أطلقني الهوى. وها هي النجوم بدأت تتراعى بيابي.

- " إنحس في روحي، وليت طليق حر، والشباب يتكلم أي كلام
يعبر عن آرائه، الثورة مش أكل وشرب، الثورة حرية هي تعبير عن اللي
في صدرك، مش مناصب، مش مكاسب، ولا تشتري بالفلوس، تدفع
مصارى تأخذ حرية، لكن هذه الحرية دون مصارى.."

...

.. الوقت يلبس ثوب الانتظار المعذب..

يسير وثيداً بين العقول والعيون.. الساعات تأتي برذاذ موجاتها
أحاديث شتى.. تتأسف كيف يهتمون بموتهم في سبيل بقائه، وهو
الذي أطلق رذاذ الفاسد، الذي رشق به وجوه البسطاء، الذين أصبحوا
لا يرون انشمس، رغم اشتياقهم لها. لقد باتوا يعرفون أن من يريد الثأر
من الموت لا بد أن يلازمه الكثير من الحب فهناك فرق بين الموت
والموت الجميل. كما أن أجمل أنواع الحب، إرث يأتيك، ولا يأتيك
وأنت تبحث عن شيء آخر.

...

.. الصباح يجأر بقوة..

إنه ملء الحناجر والعيون، ويعرف كيف تمارس كل شيء في حياتنا
اليومية، ونريد من الناس أن يسطون على جثثنا، ولا ندري كيف ومتى
يقصفنا الوطن بحبه الذي يرتفع منطلقاً بقوة تمتلئ بها الصدور.

- حماة الحمى.. يا حماة الحمى هلموا هلموا لمجد الزمن.

لقد صرخت في العروق الدما: نموت، نموت.. ويحيا الوطن...

موطني.. موطني.. الجلال ، والجمال والسناء والبهاء في رباك
والحياة والنجاة، والهناء والرجال في هوائك.. هل أراك
سالماً منعماً ، وغانماً مكرماً هل أراك، في علاك.. تبلغ السما
موطني. موطني.

- كافر من يدين موتك.. أو ليس في الموت حياة ؟!
مباركة عربتك التي أكدت عروبة طينتها وإنسانيتها.
- لقد أصدر بجسده بياناً سياسياً لإصلاح البوصلة ، بهدف توجيهها
إلى الطريق السليم ، وإلغاء الانسداد العربي الذي أصبح عمره أكثر
من قرن حيث السكون والعطالة..

- إنها "تسونامي" عربي صارخ.
- من أنت يا سيدي ؟!
- ألا تعرفني.. أنا الدغباجي..
- ومن لا يعرفك.. لكن لماذا حضرت إلى هنا..؟!
- لقد تجولت في كامل البلاد. وشاهدت الكثير مما أثارني.
.. ..

.. بيتسم ثم يواصل..
جلست على مقاهي ، الجبل الأحمر" ، شريت الشاي الأخضر الثقيل ،
مع بحارة ، قرقنة" ، ذهبت إلى وادي الجريد ، تجولت في "الوناسية"
آلمني ما رأيت. فروقات واسعة بين الناس ، هموم قاتلة تخنق البلاد
والعباد.. أنا لم أقاتل من أجل ما أرى ، لقد ناضلت ونذرت عمري من
أجل أن يكون الجميع شركاء في هذا الوطن ، وإن البلاد فيها من
يصنع الثورة.
.. يجعله شجر الضوء..

يخرج من وجهه نوراً قدسياً يشع كل ما حوله. الرياح ، أوراق الشجر ،
وشعاع الشمس ، تنقل الأخبار عبر الدروب إلى كل الشوارع والحواري ،
هو يعرف أنه سيموت قريباً لكنه سيعيش طويلاً وكأنه كان يأمل
أن يمتد الحلم من جسده المحترق إلى هشيم رأس الوطن. وذلك بهدف

التصدي لمشروع موت معين من أجل الحياة.. "البوعزيزي" حالة إنسانية شديدة الفعل والحساسية، لمن ألقى حجرًا في بحيرة راكدة جعلت من الصيد غابة، ومن الصيد فريسة.. أرض فيها الحرية قادمة لكل الناس، الفقراء، وغير الفقراء، وفيها أيضًا من الثورة..

.. ..

.. صمت مدقع يتلوه الكثير من الحديث الهامس..

أوراق ناصعة تقف على شاطئ الذكريات القريية.. الرياح تصفر في الدروب، لا زالت تصفر، تهمس في الأذان، ثم تحدد في العيون..
- لقد طرز اسمها على سطح النجوم بعد أن أمدَّ الورد من رائحة دمه لونه.

- حرقه لجسده، لملم وضعنا المبعثر في الطرق، وهذا ليس من أجل التخلص من الفقر، بل من أجل قطف الكرامة..

- وأين دفنوه؟!

- في قلوب الناس.

.. ..

.. يسير الزمن على قدميه بتزده..

ساعة واحدة قد تكون أطول من نصف قرن مفعم بالذكريات التي تمحو الأمل بالأمل.. كان السطر الأول في حديثه دائمًا، الصبر.. والصبر فقط لأن الزمن كما يقال جزء من العلاج

.. ..

يلف هواه في نفاقة جديدة وهو يمد أذنيه يلتقط ما حوله من حوار.

- كافر من يدين موته أو ليس في الموت حياة.

- مباركة عربته التي أكدت عروبة طينتها، وأكدت أيضًا أن الثورة ليست رغيغ خبز إنما أيضًا حرية وكرامة.

- لقد أصدر بيانًا سياسيًا بجسده لاصلاح البوصلة، بهدف توجيهها إلى الطريق السليم، والغاء الانسداد العربي الذي أصبح عمره أكثر من قرن حيث السكوت والعطالة.

- إنها تسونامي عربي صارخ. جعلته ينقش اسمه في السماوات العلاء.

.. ..

.. الشمس تشرق من جديد معيدة..

..للأرض أحلامها الطيبة..

نغادر "سيدي بوزيد" ونحن نشاهد أرضاً فيها بدأ ينهمر الصباح.

تبتسم لوفاء إنسان بسيط لوطن بدأ يقف على قدميه يرفع جسده

الملتهب على حروف خمسة، اختصرت تاريخه، وأضاءت بنورها كامل

المنطقة "كرامة" التي بزغت في اليوم الأول من عام ضحكة الفجر،

حتى اندلاع النجوم. في الرابع عشر من الكانون من ذلك العام العاشر،

بعد الألفية الثانية، حفنة من الرماد الآدمي، تدفع عربة خضار صغيرة،

تسقط الوثن. تبدأ حالة جديدة في الخضراء "تونس" والتي أطلق عليها

البعض "جمهورية البوعزيزي"!!

كلمات ومعانى

- سيدي بو زيد : مسقط رأس الشهيد محمد البوعزيزي.
- قرطاج : عاصمة قرطاجنة. وهي الآن إحدى ضواحي تونس العاصمة.
- الملاسيه : أحد أحياء تونس الفقيرة وتسمى حي الملاسين .
- الوناسيه : أحد أحياء تونس الفقيرة.
- الجبيل الأحمر : أحد الأحياء الفقيرة جداً في مدينة تونس.
- قرقنة : جزيرة تونسية في البحر المتوسط .
- جربة : جزيرة تونسية في البحر المتوسط.
- وادي الجريد : منطقة سكانها من الفقراء في جمهورية تونس.
- الدرديل : هو المضيق الواصل بين البحر الأسود ، والمتوسط، وجاء هنا كرمز للظرف المناسب الذي يجب استغلاله.
- مجريط : الاسم العربي الأندلسي لمدينة مدريد الحالية.
- عوليسه : الأميرة التي أقامت مدينة قرطاج. على جلد ثور.
- تومية : اسم تونسي شائع وجاء هنا كمحبوبة مفترضة للشهيد. وهو هنا رمز للأرض.
- الهلاليات : يقصد به التونسيات. وهنا إشارة إلى الهجرة الهلالية إلى شمال أفريقيا وبالذات تونس.
- راسبوتين : راهب روسي عاش في أواخر عهد أسرة آل روما نوف في روسيا القيصرية وكان له نفوذه الكبير على القيصرية.
- لمبادوزا : أقرب جزيرة إيطالية لسواحل تونس وهي أول محطة يصلها المهاجرون الأفارقة إلى إيطاليا ثم إلى أوروبا.
- الضاعة : الشارة (عروس الحقل) ، التي يضعها الفلاحون لحماية مزروعاتهم من الطيور.
- البساطير : الأحذية الثقيلة.
- الدغباجي : أحد قادة ثورة التحرر ضد الاستعمار الفرنسي في تونس.

الأعوان: رجال الشرطة.

حنابعل: هو هانيبال القائد القرطاجي الذي حاصر روما.

نيرون: امبراطور روماني أحرق روما ثم جلس يتمتع بمنظرها.

يوبايا: زوجة نيرون.

دراكولا: أمير الظلام في حكايات القرون الوسطى الأوروبية.

مقهى الزفاف: مقهى على شاطئ بحر تونس العاصمة.

المربوعة: المضافة غرفة الاستقبال في اللهجة التونسية.

البوسعيد: ضاحية من ضواحي تونس العاصمة.

الحوض المنجمي: منطقة الفوسفات في تونس. أهلها من أكثر الناس

فقراً في البلاد.

أسد بن القرات: القائد الذي فتح صقلية وجنوب إيطاليا في أوائل عهد

الدولة الأغلبية.

الأغالبة: دولة قامت في تونس بقيادة زيارة الله بن الأغلب.

يولويس قيصر: امبراطور روماني شهير.

جامعة الزيتونة: أول جامعة عربية إسلامية في الوطن العربي.

البايات: لقب حكام تونس قبل العهد البورقيبي.

الكاتب

خليل إبراهيم حسونة

صدر له

- الشعر والنص
- الجرح تسافر فيه السكين
- السماء تمطر بغزارة
- عين واحدة.. عيون كثيرة
- الخروج من حلم البنفسج
- قلب بحجم الوطن (نصوص)
- للقدس تجلياتها.. وللهوى أيضاً
- المنفى وحالات الحجر
- قصص قصيرة:

- الطوق
- النفير
- قدم وساق
- الحطاب والشجرة (قصة مصورة للأطفال)
- أبعاد
- ثرثرة المكان
- لا رائحة للبحر

• رواية:

- الأسوار
- الدوائر
- أنياب الصل
- الأشياء
- سيرة الزلزلة
- مرايا لا تتسع لخدوشها

• مسرح:

- ما يحترق الأرض إلا عجولها
- زي ما رحتي.. زي ما جيتي (مسرحية)

• النقد:

- الحجر الفلسطيني: الفعل والإبداع
- سؤال القصيدة
- جمر الإبداع في النص الحدائثي

- الوعي السلبى للثقافة المغايرة
- ضفاف الأنثى.. سطوة اللحظة.. وطقوس النص
- تراث شعبى (فولكلور) :

- المثل الشعبى العربى الفلسطينى
- المثل الشعبى فى ليبيا وفلسطين
- حمامة عسقلان
- الفولكلور الفلسطينى : دلالات وملاحم
- التراث الشعبى الفلسطينى : ملاحم وأبعاد
- الحزازير والألعاب الشعبىة الفلسطينية
- الأغنية والأغنية السياسية فى فلسطين
- الفكر والسياسة :

- العنصرية الصهيونية وكيفية مواجهتها
- الانتفاضة (بالاشتراك)
- الماسونية قديماً وحديثاً
- لكى لا ننسى فلسطين
- حول الحركات الهدامة
- الحرب والثقافة
- الثورة الشعبىة الفلسطينية (ثورة ١٩٣٦م-نموذجاً)
- الواقع العربى بين الثابت والمتغير (جزأين)
- الإرهاب الأمريكى
- الحرب النفسىة الحديثة

• تحت الطبع :

- رقم (رواية)
- زمن العواء (رواية)
- ناسوت (شعر)
- طينتى وجعك (شعر)
- طقوس الرجم (نصوص) - التوق والبوح الأزرق (نصوص)
- مشاهدات المواطن حمد الله إبراهيم (قصص قصيرة)
- سهيل النص الشعري (نقد) - شيء لا يشبه نفسه (نقد)